الإسلام نسب

يوصل إلى رسول الله ﷺ

تأليف

الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبو العزائم

فاتحة الكتاب

الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحا لذكره, وخلق الأشياء ناطقة بحمده وشكره. كلت الألسن عن غايته، والعقول عن كنه معرفته، وتواضعت الجبابرة لهيبته، وعنت الوجوه لخشيته، وانقاد كل عظيم لعظمته، فله الحمد متواترا متسقا ومتواليا مستوثقا. والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد سيد المرسلين، وخاتم النبيين، المؤمل للنجاة، والمرتجى للشفاعة، صاحب الفضل والفضيلة، والمنزلة والوسيلة، والدرجة الرفيعة.وابعثه اللهم مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون، وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة الهادين والعلماء الصادقين، والأبرار المتقين، دعائم دينك، وأركان توحيدك، وخلفائك في أرضك الذين اخترتهم لنفسك، واصطفيتهم على عبادك، وعلى المؤمنين من أصحابه إلى يوم الدين، ورضي الله تبارك وتعالى عن الإمام المجدد السيد مُحَمَّد ماضي أبي العزائم، ونضر الله وجه خليفته الأول الإمام الممتحن السيد أحمد ماضي أبي العزائم آمين.

وبعد، فتقدم دار الكتاب الصوفى – وهي أحد أوجه نشاط مشيخة الطريقة العزمية التي أسند إليها طبع ونشر وتوزيع تراث الإمام المجدد السيد مُحَمَّد ماضي أبي العزائم – الطبعة الثالثة من كتاب:«الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾» وكتاب: الإسلام نسب.. يعالج نزعة التفاضل بالنوع البشري، والنعرة القومية التي أثيرت في أوربا، بعد أن أصبحت معسكراواحدا ضد الشرق تتفاضل عليه بالجنس الآري، الذي خلق على حد زعمهم ليسود ويحكم ؛ أما أمم الشرق فخلقت لتخضع وتستعمر، مجددين في ذلك النعرة القديمة التي كانت سائدة في عهود اليونان والرومان.

ومما دعا الإمام المجدد السيد مُحَمَّد ماضي أبا العزائم إلى طبع هذا الكتاب ما حدث في العالم الإسلامي من سريان هذا التعصب الجنسي، والنعرة القومية، في بعض البلاد الإسلامية فرأى في بلاد الأتراك عودا إلى إحياء النزعة الطورانية، وفي بلاد إيران عودا إلى إحياء القومية الفارسية، وفي بلاد العرب غرس الاستعمار نزعة الجامعة العربية. لذلك كله رأى الإمام المجدد السيد مُحَمَّد ماضي أبو العزائم عليه السلام أن يكتب هذا الكتاب «الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ » وبذلك يقرر عليه السلام مفهوم الإسلام نسب فيقول : يظن الناس أن النسب قرابة تدلي إلى الأب والعم والخال، جهل الناس وحقك أيها الأخ الصالح التقي، ليس هذا هو النسب، إنما النسب حقيقة هو الإسلام، لأن نسيبك في الحقيقة من شاكلك حقيقة وخلقا، وشيمة وعملا، ولو كان

أعجميا وكنت شريفا هاشميا، وحسبنا حجة في ذلك قوله ﷺ: « أدخل الإسلامُ بلالا في نسبي وأخراج الكفرُ أبا لهب من نسبي » وقوله ﷺ:«سلمان منا أهل البيت » فالقرابة ياأخى هي المشاكلة ولا مشاكلة إلا في مبدأ ينتج السعادة ولا يتحقق ذلك إلا في الإسلام.

وليس ابن أمك وأبيك بقريبك، إن خالفك شكلا واعتقادا وشمائلا وميولا، وكم ابن أم قتل ابن أمه، بل لا ترى العداوة والخصومة أمام القضاة، إلا بين الأخ وأخيه،والوالد وولده وابن عمه، وكم أخ لك لم تلده أمك، ذلك هو أخ الإسلام حقا،وليست القرابة تصح حقيقة – في الدنيا للمعاونة، وفي الآخرة بالسعادة – إلا بالأخوة الإسلامية، وكل قريب وصديق وحبيب – ولو من أب وأم – لم تكن قرابته للإسلام، فهي خسران في الدنيا وهلاك في الأخرى، سر قوله تعالى : ﴿الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [1] ومحكم قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [2].

ولنا أن نسأل الإمام المجدد السيد مُحَمَّد ماضي أبا العزائم عليه السلام: لم يدور كتاب الإسلام نسب على دعامتين الأولى : قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ؟ والثانية قوله ﷺ (المسلم أخو المسلم 000) ولم لا يدور كتابه عن الأخوة الإنسانية ؟، مع العلم بأن الرب واحد، والأصل واحد، والخلقة واحدة، والمساواة بين بني الإنسان واجبة، فالحب ينبغى أن يكون عاما لا خاصا، تماما كرحمة الله التي وسعت كل شيء ؟.وأى فرق بين أن نقسم بني آدم على أساس ديني كما فعلت المسيحية في الحروب الصليبية قديما، وكما تفعل الآن في مسلمي الفلبين وإرتريا، أو كما تفعل الصهيونية في فلسطين – أو على أساس اقتصادى – كما فعلت الماركسية في ابتلاعها للبلاد الإسلامية كجمهورية أوزبكستان والتركستان، وكما فعلت في أفغانستان، أو في تصيدها للعملاء في وطننا العربي، كما حدث في جنوب اليمن والعراق وسوريا وليبيا.

ثم نسأل الإمام المجدد السيد مُحَمَّد ماضي أبا العزائم عليه السلام، ما هو السبب لما عانته وتعانيه الإنسانية، من الويلات والمشكلات، التي تقودها الآن إلى المصير المدمر المهلك، بعد أن ملك الإنسان قوى التدمير والهلاك ؟.

---

(1) سورة الزخرف آية 67
(2) سورة الحجرات آية 10

هل يكمن هذا السبب في طبيعة الإنسان بما هو إنسان ؟ أو أن السبب يكمن في الانقسامات بشتى أنواعها ؟، وبالتالي هل على بني الإنسان أن يتعاطفوا ويتراحموا على أساس ديني أو اقتصادى، أو جنسي، أو على أساس إنساني ؟.

الجواب : هذه التساؤلات بكاملها يجيب عليها الإمام المجدد في هذا الكتاب، فيقول عليه السلام : إن التعاون والتكافل يجب أن يكون بين بني الإنسان قاطبة دون استثناء، وهذه دعوة الإسلام بالذات، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ياأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [1] فنداؤه تعالى : ﴿ياأَيُّهَا النَّاسُ﴾ مع قوله : ﴿ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ مع قوله : ﴿أَتْقَاكُمْ﴾ دليل قاطع وواضح على أن دعوة الإسلام إنسانية، تعتبر الإنسان أخا للإنسان، مهماكانت قوميته وجنسيته، وتأكيدا لهذا المعنى يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله: « الناس سواسية كأسنان المشط، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي علىعربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى... كلكم من آدم وآدم من تراب » فالإنسانية في الإسلام إنسانية حانية، لا ينقلب من قلبها الذكى شاردة من آمال البشر وآلامهم ؛ إلا لبتها ورعتها وأعطتها كل اهتمام وتأييد.

فالإنسانية في الإسلام، ترى فيها الذين شنوا الحرب والبغضاء على نبي الإسلام، فقتلوا عمه الشهيد « حمزة » ومثلوا بجسده، ومضغوا كبده في وحشية ضارية، فقال لهم نبي الإسلام : « اذهبوا فأنتم الطلقاء... ».

إنسانية الإسلام تحث على الرحمة، فالبسمة التي تعلو شفتي أب حنون، وتكسو وجه أم متلهفة لا تباع عند الإسلام بثمن، حتى حين يكون الثمن جهادا يثبت دعوته، وينشر في الآفاق البعيدة رايته.

وهكذا ترى الإسلام رد إلى والدين دامعين ابنًا لهما جاء يبايع الإسلام على الجهاد فيقول له نبي الإنسانية : « ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما.. ».

---

(1) سورة الحجرات آية 13

إن رحمة الإنسانية تتم عند الإسلام برحمة الوالدين وبرهما، لأنهما مصدر هذه الإنسانية ووعاؤها، وإذا كانت العبادة تتحول إلى تعذيب، حين تجيء على حساب رحمة الإنسان فإنها – أي العبادة – تتحول إلى عقوق، إذا تمت على حساب رحمة الوالدين.

لقد صور الإسلام مصير البغي التي ظفرت من الله بالتوبة والشكران، والجنة، لمجرد كونها رحمت كلبا ظمآن، وهيأت له الشراب.

فهل ثمة فتون بالرحمة والإنسانية يعدل هذا الفتون وهذه الإنسانية ؟.

ويعطينا الإسلام صورة أخرى من صور الإنسانية حين يرى الرسول صلوات الله وسلامه عليه أما تضم طفلها إلى صدرها في حنان بالغ، فالتفت إلى أصحابه وقال لهم :« أترون هذه طارحة ولدها في النار... ؟ قال أصحابه : لا والله يارسول الله، قال :لله أرحم بعباده من هذه بولدها ».

ويقول عليه أفضل الصلاة والسلام:« إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيىء الليل ».

وبهذا يتضح لك – أيها القارىء المسلم – الهدف من كتاب : « الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﷺ » فإن الإسلام هو نسبنا جميعا، لأن الإسلام يعتبر أن الإيمان بالإنسانية جزء متمم للإيمان بالله ورسوله وكتبه، وعليه يكون المراد بالمؤمن في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] والمسلم في قوله ﷺ : « المسلم أخو المسلم » هو الذي يؤمن بالله وبالإنسان بما هو إنسان، ومن ثم فلا تناقض بين الأخوة الإنسانية والأخوة الإسلامية، بل هذه تدعم تلك، وتزيدها قوة ورسوخا.

إن من يلتمس الإنسانية إذا تحولت قيادة العالم من بريطانيا وفرنسا إلى أمريكا، ومنهم جميعا إلى روسيا، واهم ومضلل، فإن هذا التحول ليس إلا نقل المجداف من اليمين إلىالشمال، فما دام المجداف

(1) سورة الحجرات آية 10

واحدا فلا فرق بين يمينه وشماله، وليست فرنسا وبريطانيا وأمريكا وروسيا إلا أيدى رجل واحد تتداول دفة الحياة الاستعمارية، وتتناول تجديف سفينة الاحتلال على خط واحد وإلى جهة واحدة.

إن التحول المؤثر هو تحول القيادة العالمية من الكتلة الغربية والكتلة الشرقية ومن كان على شاكلتهما من الأمم الأوربية أو الآسيوية أو الأفريقية إلى الإسلام، الذي يقوده سيدنا مُحَمَّد ﷺ – الإنسان الكامل – برسالته الخالدة ودينه الحكيم.

إن حنين الإنسانية إلى نمير الإسلام دينا، وأرض الإسلام وطنا، وخلق الإسلام نسبا، يزداد يوما بعد يوم كلما تكشف للإنسانية زيف المستعمرين المعتدين من الشرقيين أو الغربيين، وكلما تساقطت أقنعة عملائهما من الدجالين والمنحرفين.

ودار الكتاب الصوفى إذ تقدم لشبابنا المسلم – في إطار العبارة المشرقة المخلصة – روح الإمام المجدد السيد مُحَمَّد ماضي أبي العزائم،المرشد القدوة الحسنة، والمثل الرائع في المبدأ والعقيدة، في الخلق والسلوك، في السيرة والسريرة، من خلال تراثه الزاهر الذي يجلجل – حتى في قلوب الذين سقطوا ضحايا التخطيط الفكري والثقافي الماكر –وليأخذ بأيدي شبابنا ليلحق بركب الصالحين.

دار الكتاب الصوفى **الخليفة الثاني**

رجب 1413هـ **السيد عز الدين ماضي أبو العزائم**

28 ديسمبر 1992 م

التماس الطبعة الأولى
غرة ربيع أول 1338 هـ 1920/5/19
للإمام الممتحن
السيد أحمد ماضي أبي العزائم عليه السلام

الحمد لله الذي تفضل علينا بأن جعلنا من أمة حبيبه ومصطفاه, وأكرمنا سبحانه بدوام أنواره المحمدية لنا وفينا, فهو ﷺ خاتم الرسل حقا, ولا تزال معجزاته تترى إلى أبد الآبدين, وأنوار شمسه المحمدية تشرق في كل حين, وكيف لا ؟ ونحن في آخر الزمان يجدد الله لنا وبنا ما خفى من أنوار العلوم وما اندرس من أثار أئمة الهدى, حتى نرى أنفسنا أننا في عصر السلف الصالح رضي الله عنهم, الذي كان مشرقا بأنوار النبوة وأسرار الفتوة, وأحوال الأئمة الهداة, كما قال ﷺ : (أمتي هذه أمة مرحومة مغفور لها لا يدرى أولها خير أم آخرها) وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] والصلاة والسلام على الشمس المشرقة في كل زمان, التي إذا غابت عن أفق أظهرت أنجمها المضيئة بنورها فاستبانت بهم الحجة, ووضحت بهم المحجة.

وبعد, فيقول الخديم المسكين أحمد ماضي أبو العزائم عليه السلام : إني لما أن نشأت من نعومة أظفاري في حضانة سيدي ووالدي الإمام المجدد السيد مُحَمَّد ماضي أبي العزائم عليه السلام متمتعا بسماع الحكمة, نمت في نفسي همة الخدمة العامة, فظهر لي أن أنفع شيء أقوم به نشر تلك الأسرار العلمية والحكم النبوية بين إخوتي المؤمنين, حفظا لآثار سيدي الوالد عليه السلام.

وبعد أن طبعت كتاب : (الإسلام وطن) التمست من سيدي الوالد عليه السلام أن يأمرني بطبع كتاب : (الإسلام نسب) فشرح الله صدره لطبعه, فاجتهدت لضبطه وتصحيحه, وسألت الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم, وبرا بوالدي وسيدي أطال الله عمره.

---

(1) سورة المائدة آية 54

وها هو الكتاب قد أعان الله على إتمام طبعه, جامعا لما كان عليه سلفنا الصالح من الغيرة والعصبية للإسلام, ومن الانتساب إليه حقا, لتبتهج به نفوس أهل الإيمان, حتى يكون المتأخر مع المتقدم, بل ونكون جميعا مع رسول الله ﴿ﷺ﴾ بنص قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ.....﴾ [1] إلى آخر السورة.

فإن الله تعالى أثبت لكل متصف بتلك الصفات معية رسول الله ﴿ﷺ﴾ – وليس بيننا وبينه ﴿ﷺ﴾ بين, وإنما هو عزيمة على التشبه بالأئمة, فإقدام على العمل, فاتصال به ﴿ﷺ وآله﴾ – حتى يكون من أهل العزائم, وكلنا نتوجه إلى الله تعالى أن يطيل لنا عمر السيد الوالد, وأن ينفع بعلمه وينشر طريقه في سائر البلدان, وأن يحفظ هذا النور المشرق لنا وبنا, إنه مجيب الدعاء, وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

(1) سورة الفتح آية 29

مقدمة

الحمد لله الذي يجدد ولا يتجدد, يهب الملك لمن يشاء بفضله, وينزعه بعدله, لا معقب لحكمه, وهو على كل شيء قدير, تفضل علينا سبحانه بعظيم نعماه, وجميل جدواه, فشرح للإسلام صدورنا, وبالعمل بشرائعه أعزنا, وبالإخلاص في العمل مكن في الأرض لنا, حتى دانت لنا الأمم في شرق الأرض وغربها.

ثم أحدث الحظ والهوى أحداثا, حتى تغير ما بالنفوس, فخفيت فضائل الإسلام, ودرست – أو كادت – معالمه, فكان ما كان من التفات الله تعالى بوجهه الجميل عن المجتمع, فأصبح شيعا بالتفرقة, وفرقا بالمخالفة, حتى تحكم الهوى من النفوس, وتسلط الحظ على العقول, فأفسد الأصول وأضاع الفروع, لولا بقية أبقاها تعالى لحفظ شريعته, وحفظها لتأييد سنة نبيه ﴿ﷺ﴾ حتى صرت ترى الإسلام غريبا بين المسلمين, وصارت البدع المضلة سننا, وسنن الأئمة الهداة منكرة, فسلط الله من سلطهم من عباده فجاسوا خلال الديار, وطعنوا في الدين.

وإنا – والحمد لله – لا نيأس من روح الله, ولا نقنط من رحمة الله, لأن الله تعالى يقول وهو أصدق القائلين : ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾[3]

وإنا – والحمد لله – على ثقة تامة من أن الله تعالى ينجز وعده وينفذ حكمه, معجزة لمولانا وسيدنا مُحَمَّد ﴿ﷺ﴾.

اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله ومن هاجروا ليتصلوا بنسبه الحقيقي في دار الإسلام, وأنصاره الذين تحققوا بالنسب الحقيقي, قال الله تعالى :﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [4] وفي رواية فوق السبعة: ﴿وهو أبوهم﴾ ﴿ﷺ﴾.

---

(1) سورة يوسف آية 87
(2) سورة الصف آية 9
(3) سورة التوبة آية 32
(4) سورة الأحزاب آية 6.

وبعد، فيقول خديم الفقراء مُحَّد ماضي أبو العزائم (عليه السلام) : إني – والحمد لله –لما أن مَنَّ الله تعالى عليَّ بما مَنَّ سبحانه – مما لا أحصيه من النعماء – طالبتني نفسي أن أكتب كتابا جامعا للمراقي، التي يعرج بها المسلمون معارج سلفهم الصالح، حتى يجدد الله بهم ولهم ما كان لأئمة الهدى من التمكين في الأرض، والفوز برضوان الله الأكبر، وبجوار حبيبه ومصطفاه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

فظهر لي أن هذا الأمر العظيم ينحصر في ثلاثة مواضيع، لأن الإسلام دين، ووطن، ونسب، فاستخرت الله سبحانه وتعالى وسألته المعونة، فأعان الله سبحانه ووفق، فكتبت كتابا سميته: (الإسلام دين) وآخر سميته: (الإسلام وطن) وقد طبعا والحمد لله، وهذا أسميته: (الإسلام نسب) وقد تحريت فيه الحقائق بقدر استطاعتي، فما كان فيها من حق فهو من الله تعالى بتوفيقه وحسن عنايته سبحانه وتعالى، وما كان فيها من باطل فهو مني بعجلتي، فأسأل الله تعالى أن يغفرها لي، وأن يتقبل ما هو منه سبحانه.

والغرض من وضع هذا الكتاب – بعد حسن النية على ما أعتقد فيما أملك، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف شاء– هو يقظة المجتمع الإسلامي من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، حتى يتحقق بنسبه الحقيقي، الذي بإدلائه إليه يفوز بأعظم حظ وأوفر قسط مما بشر الله به الصالحين، ووعد به أولياءه المخلصين، وتفضل به على سلفنا الصالح، من التمكين في الأرض بالحق، ومن المعاملة لله بالإخلاص،من المجاهدة في سبيل الله بالنفس والمال، ومن التعصب الحقيقي للغيرة لله ولرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ ومن الصولة لله على المخالف لدينه، والمبتدع في سنن رسوله ﴿صلى الله عليه وسلم وآله﴾ والعامل لحظه وهواه،حتى نفوز جميعا بالعزة بالله تعالى، كما قال سبحانه : ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ ﴾[1]﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]ونحيا الحياة الإيمانية الحقة، التي نكون بها كما قال الله تعالى:﴿وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[3].

ولي في وضع هذه الكتب أغراض أخرى لاتخفى، أسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها بني الإسلام والمسلمين، إنه مجيب الدعاء.

---

(1) سورة البقرة آية 257.
(2) سورة المنافقون آية 8.
(3) سورة النساء آية 141.

الباب الأول
نيل الفضائل بالإسلام
الفصل الأول
الإسلام نسب

الآيات والأحاديث الواردة على أن الإسلام نسب:

اللهم ودني بروح منك، ووفقني للصواب في القول والعمل، وألهمني الحكم، ويسر لي البيان إنك مجيب الدعاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [1] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾[2] وقال تعالى:﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾[3] وقال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [4].

وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : (مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) [5].

وقال ﴿ﷺ﴾ : (المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله) [6] وقال ﴿ﷺ﴾ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) [7] وقال ﴿ﷺ﴾ : (المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا- ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، ماله ودمه وعرضه) [8] وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ : (إن الله أوحى إليَّ أن تواضعواحتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد) [9]

---

(1) سورة الحجرات آية 10.
(2) سورة النساء آية 100.
(3) سورة الملك آية 15.
(4) سورة النور آية 55.
(5) رواه البخارى ومسلم.
(6) أخرجه أحمد في مسنده.
(7) أخرجه البخارى في كتاب الأدب.
(8) رواه مالك والبخاري ومسلم.
(9) رواه مسلم

وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الطويل : (لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا) قال فيه ﴿ﷺ﴾ : (إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية– العبية التكلف والكبر– وفخراً بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس كلهم لآدم وآدم خلق من تراب) [1].

النسب حقيقة هو الإسلام:

يظن الناس أن النسب قرابة تدلي إلى الأب والأم والعم والخال، جهل الناس – وحقك– أيها الأخ الصالح التقي، ليس هذا هو النسب، إنما النسب حقيقة الإسلام،لأن نسيبك في الحقيقة من شاكلك حقيقة وخلقا، وشيمة وعملا، ولو كان أعجميا وكنت شريفا هاشميا، وحسبنا حجة في ذلك قوله ﴿ﷺ﴾ : (أدخل الإسلام بلالا في نسبي وأخرج الكفر أبا لهب من نسبي) وقوله ﴿ﷺ﴾: (سلمان منا أهل البيت) [2] فالقرابة ياأخي هي المشاكلة، ولا مشاكلة إلا في مبدأ ينتج السعادة، وفي معنى يحبه الله تعالى ورسوله ﴿ﷺ﴾، ولا يتحقق ذلك إلا في الإسلام، وليس ابن أمك وأبيك بقريبك إن خالفك شكلا واعتقادا وشمائل وميولا.

وكم ابن أمه قتل ابن أمه، بل لا ترى العداوة والخصومة أمام القضاة إلا بين الأخ وأخيه، والوالد وولده وابن عمه، وكم أخ لك لم تلده أمك، هو أخو الإسلام حقا، وليست القرابة تصح حقيقة في الدنيا للمعاونة وفي الآخرة بالسعادة إلا الأخوة الإسلامية.

وكل قريب وصديق وحبيب – ولو من أب وأم – لم تكن قرابته للإسلام فهى خسران في الدنيا، وهلاك في الآخرة، سر قوله تعالى :﴿الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [3] ومحكم قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [4].

فالنسب هو نسب الإسلام، ومن رأى غير رأيي فلينزل نفسه أي منزل ينزلها فيه، فلا نجاة لها إلا بالإسلام.

---

(1) رواه أبو داود والترمذى واللفظ له وقال حديث حسن.
(2) أخرجه الطبراني في الكبير.
(3) سورة الزخرف آية 67.
(4) سورة الحجرات آية 10.

كان أهل الأديان قبل الإسلام يقيدون العبادات بأماكن خاصة فجعلت أوطانا لهم, فإذا فارقها أحدهم لا يعبد الله, وجعل الإسلام لنا الأرض مسجدا وترابها طهورا [1], فالأرض تقلنا والسماء تظلنا, والإسلام وطننا, والأخ والأب والأم لهم عليَّ واجبات أُلزمت بها, وحقوق طُولبت بها, وإنما الأخ الذي أحن إليه وآلفه, والقريب الذي أميل إليه وأشرفه الأخ في الإسلام, وإن بعد نسبه, وشط منزله, وتناءت داره, وتغيرت لغته ولونه.

التمدين تمدين الإسلام:

قبل بيان تلك الحقيقة نبين معنى هذا اللفظ: التمدين: مأخوذ من مدن, أي:أقام, والمدينة ما تبنى على آطام الأرض للإقامة, وإقامة الإنسان في موطن مخصوص, لا تتسنى له إلا بتيسير ما لابد له منه من طعام ولباس, ومسكن وأمن وملاءمة الهواء, ولا تتوفر تلك الضروريات للإنسان بنفسه أبدا إلا بمعاونة غيره له، لأن كل واحد من الناس مفطور على الاحتياج في قومه، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته، وأشرف ما أهل له، إلى أشياء كثيرة يستحيل عليه أن يقوم بها كلها وحده، فهو يحتاج إلى جماعة، يقوم له كل واحد منهم بحاجة من ضرورياته، وكل فرد من أفراد الجماعة يحتاج إلى هذا العمل بعينه.

من ذلك يتبين لك أن الإنسان لا ينال كماله الحقيقي إلا بجماعات كثيرة يتضامنون على التعاون، يقوم كل واحد مع الآخر بحاجة، وبذلك يجتمع لكل واحد جميع ما يحتاج إليه بعمل كل أفراد المجتمع، وهذا السبب الحقيقي للمدن والموجب للاجتماعات، ولولا اضطرار كل فرد للجماعة لما حصل مجتمع، ولو نظرت بفكرك إلى أنواع الحيوانات لرأيت أكثرها لا اجتماع لها، لغنى كل فرد منها عن الجماعة.

والمجتمعات إما عظمى كاملة وإما غير كاملة، والمجتمعات الكاملة إما عامة كبرى، أو وسطى، أو صغرى.

فالمجتمعات العامة الكبرى اجتماع بني الإنسان على سطح الأرض.

---

(1) يشير بذلك إلى حديث رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي" ومنه "وجعلت الأرض لي مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل"

والوسطى اجتماع أمة في جزء من الأرض, كاجتماع العرب والمصريين في مصر.

والصغرى اجتماع أهل المدينة, كمدينة بغداد والمحروسة ودار السعادة حرسها الله.

وقد سمى رسول الله ﴿ﷺ﴾ الأرض التي جمع الله فيها القائمين له سبحانه بما يحبه ويرضاه بالمدينة المنورة, يعني المجتمع الإنساني الذي نوره الله تعالى بنور التخلق بأخلاقه والقيام له سبحانه بشكر النعمة, وعلى ذلك فالمجتمع الإسلامي إذا مثل أصحاب رسول الله كانت الأرض التي يسكنها هي المدينة المنورة في الحقيقة ونفس الأمر, والإشارة إلى ذلك بقوله ﴿ﷺ﴾ : (المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون) يعني القيام لله بما يحبه ويرضاه خير لهم.

والمجتمع غير الكامل كاجتماع القرية والمحلة والمنزل, وأصغرها الاجتماع المنزلي, وهو عند الحكماء أكبر المجتمعات, لأنه يكون أمة كاملة من رئيس ووزراء وأعوان وصناع, إذا تكون من والد حكيم, وأبناء بررة, وخدمة صالحين, وذلك لأنه أصل كل مجتمع, وبنسبته تكون الأمة في الفضيلة والرذيلة, والمجتمعات الصغرى تكون كجزء للمدينة أو كخدمة لها, والمدينة جزء من الأمة, والأمة جزء من أهل المعمورة, ومن البديهي أن الخير الأفضل والكمال الحقيقى لا ينالان إلا بالمجتمع المدني, لتوفر أسبابه وتيسير معداته, بخلاف المجتمعات الصغرى, فإنها – وإن توفر فيها بعض الخير والكمال – إلا أنهما لا يكونان على الوجه الأكمل.

هذا, ولما كان الخير في الحقيقة ينال بالإرادة والاختيار, وكذلك الشرور إنما تنال بالإرادة والاختيار, جاز أن تكون المدينة للتعاون على بلوغ بعض الغايات والأغراض التي هي نهاية الشرور.

وليست كل مدينة تنال بها السعادة إلا بشروط خاصة لابد أن تتوفر فيها, حتى يمكن أن يكون كل فرد منها مجدا في التعاون على الأعمال التي تنال بها السعادة في الحقيقة ونفس الأمر, وينال بها الخير الأفضل, وذلك لا يكون إلا بباعث قلبى عن علم بالله تعالى, وبأيامه, وأحكامه, وتصديق بالجزاء والعقاب يورث خشية بها تنبعث همته إلى طلب الخير الحقيقي له ولغيره, والعمل للنفع العام, أو بأحكام صارمة تنخلع بها قلوب أهل الطغيان والمفاسد, وتطمئن بها القلوب لأنها من الحكم العدل العليم الخبير القادرالقهار, يقوم بتنفيذها أمين صادق زكي النفس عليّ الهمة, يخشى ربه ويرجو فضل

مولاه, أو من ترفعت نفسه عما يشينها وكره سوء السمعة, وباطنه إلى الله تعالى هو أعلم به, ولا سبيل إلى هذا كله إلا بالإسلام.

وكل مدينة يتعاون أهلها على نيل الخير الأفضل والكمال الحقيقي – عملا بوصايا الإسلام – هي المدينة الفاضلة, والأمة الفاضلة, وقد شبه رسول الله ﴿ﷺ﴾ المجتمع الإسلامي بالجسد الواحد, الذي إذا مرض إصبع منه سقم له جميع البدن, وهي الحقيقة, فإن المدينة الإسلامية أو المجتمع الإسلامي التام هو المجتمع الفاضل, وهو كماشبهه رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالبدن الصحيح التام, الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم الحياة الحيوانية والروحانية, وعلى حفظها عليه.

وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة, متفاضلة الفطر والقوى, وفيها عضو واحد رئيس هو القلب, وأعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس, وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله, ابتغاء لما هو غرض ذلك العضو الرئيس, وأعضاء أخر فيها قوى تفعل أفعالها, على حسب أغراض هذه التي ليس بينها وبين الرئيس واسطة, فهذه في الرتبة الثانية, وأعضاء أخر تفعل الأفعال على حسب غرض هؤلاء الذين في هذه المرتبة الثانية, ثم هكذا إلى أن تنتهى إلى أعضاء تخدم ولا ترأس أصلا, وكذلك المدينة أجزاؤها مختلفة الفطرة متفاضلة الهيئات, وفيها إنسان هو رئيس, وآخرون تقرب مراتبهم من الرئيس, وفي كل رتبة منها هيئة وملكة تفعل بها فعلا يقتضي به ما هو مقصود ذلك الرئيس, وهؤلاء هم أولو المراتب الأول, ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء, وهؤلاء هم في الرتبة الثانية, ودون هؤلاء أيضا من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء, ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهي إلى من يفعلون أفعالهم على حسب أغراض غيرهم, فيكون هؤلاء هم الذين يَخدمون ولا يُخدمون, ويكونون في أدنى المراتب, ويكونون هم الأسفلين.

غير أن أعضاء البدن فطرية, والهيئات التي بها القوى فطرية, وأجزاء المدينة – وإن كانوا مفطورين– فإن الهيئات والملكات التي يفعلون بها أفعالهم للمجتمع منه ليست فطرية بل إرادية, على أن أجزاء المجتمع مفطورين بالطبع بفطر متفاضلة, يصلح بها إنسان لإنسان لشيء دون شيء, غير أنهم ليسوا أجزاء المجتمع الإسلامي بالفطر التي لهم وحدها, بل بالملكات الإرادية التي تحصل بها, وهي الصناعات وما شاكلها, والقوى التي هي أعضاء البدن بالطبع،فإن نظائرها في أجزاء المدينة ملكات وهيئات إرادية. وهذا تفصيل لإجمال الحديث الشريف على قدر ما يفهم الإنسان الذي له قلب يفقه أسرار الكلام النبوي، فإن كل كلمة من كلام النبي ﴿ﷺ﴾ كنز لغالي الحكم ونفائس العوارف، ولو

أني أحببت أن أفصل هذا الحديث الشريف وأشرح معانيه الغامضة ؛ لاستغرقت عمري صارفا كل أنفاسي في بيانه ولم أف بغوامض أسراره، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1].

من هذا الحديث الشريف يعلم قدر المدينة الإسلامية, وما أنتجته للعمران من السعادة والراحة والحضارة, والرقي العقلي والعلمي, والصناعي والتجارى والزراعي, ونمو الفكر حتى بلغ أن يجول فيما وراء المادة, بعد أن كشف أسرارها واستخدامها فيما ينفع.

لم يكن هذا كله إلا بالوصايا الإسلامية, والتعاليم المحمدية, لأن وصايا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ ضامنة للسعادتين, متضمنة خيري الدنيا والآخرة, حاثة على العمل لله, حتى أنه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ نبه قلوب المسلمين في كل حركاتهم وسكناتهم أن يعملوا للخير العام ابتغاء مرضاه الله تعالى, وقد بشر من غرس الشجرة ولم ينتفع بها أن له صدقات بقدر ما ينتفع بظلها وبثمرها[2], كل ذلك حث على العمل لله تعالى.

الفصل الثانى
لا مدينة إلا بالإسلام

بيان أنه لا مدينة إلا بالإسلام :

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ (المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون) ليس كل مجتمع من المجتمعات مدينة بالمعنى الذي يكون به الاجتماع والتعاون إلى نيل الخيرات, فإن أكبرالمجتمعات – من حيث هي مجتمعات – قد تدفعها العنايات إلى أن تكون قرارة شرور, ومهاوي مفاسد, ومدارج للهلاك وإنما المجتمعات التي تعتبر في نظر الحكماء أنها مدينة بالمعنى الصحيح, هي المجتمعات التي يتعاون كل واحد منهم على نيل الخير الحقيقي للجميع, ولما كان الخير الحقيقي الذي بنيله يفوز الإنسان بالسعادتين – السعادة الحسية والسعادة الروحانية – ولا ينال هذا الخير الحقيقي إلا بمجتمع يتعاونون جميعا على نيله.ومن ظن أن مطلق اجتماع بني الإنسان في الأرض يكون مجتمعا يتعاون أهله على نيل الخيرات الحقيقية, فقد أخطأ, لأن للنمل مدنا منظمة بها رؤساء وقواد وصناع وفعلة, وكذلك للنحل مدن بها

---

(1) سورة الإسراء آية 85

(2) إشارة إلى الحديث الذي رواه البخارى ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال : « ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة » الترغيب ج 4 ص 154.

سلطان ووزراء وجيوش وصناع وفعلة, وكذلك للطيور مدن منظمة كأنها تسير على قوانين مرسومة, وللقردة وغيرها من الأنواع التي تتعاون على دفع ما يضرها وجلب ما ينفعها بوجه ما, فإن فرضنا أن كل مجتمع من بني الإنسان يدفع الضرر عن نفسه ويجلب النافع لنفسه يكون مدينة فاضلة, فذلك ما لا يقول به إنسان, لأن تلك المجتمعات هي أشبه بمجتمعات الحيوانات, إلا أنها أرقى منها من حيث أن الإنسان يمكنه أن يتفنن في آلات الدفاع عن نفسه, ويحتال في جلب النافع لها أكثرمن الحيوانات الأخرى.

وهو بهذا المعنى لم يكن إنسانا حقيقة, ولكنه حيوان امتاز عن بقية أنواع الحيوانات الأخرى بقوى لا بد له منها.

إذا تقرر ذلك, يظهر أن مراد العلماء بالمدينة – في حقيقة الأمر – هي مدينة رسول الله ﴿ﷺ﴾ في عصره, لأن المجتمع الذي كان يتعاون حقيقة فيها كان على نيل الخير الحقيقي لكل أفراد بني الإنسان, ومحو الشر مطلقا عن كل أفراد بني الإنسان [1], ولذلك فإن لفظ المدينة المنورة كان علماً عليها.

وهكذا كل مجتمع في أرض اتبع رسول الله ﴿ﷺ﴾ بقدر استطاعته فهم من أهل المدينة المنورة, وغيرهم ليس من بني الإنسان وإن كان على صورته, حتى ولو كان لهم اجتماعات وقوة ومنعة وصناعات وفنون, فإنهم إنما يمثلون مدينة النمل, أو مدينة النحل, أو مدينة الطيور, أو يمثلون غابة جمعت وحوشا مفترسة وغير مفترسة, وذلك لأنهم لم يتعاونوا على نيل الخير الحقيقي الذي هو خير في الحقيقة للإنسان من وجوهه الفاضلة, بل تعاونوا على نيل ما هو خير للحيوان من غير وجوهه الفاضلة.

ولست مبالغا إن قلت : الإنسان لم يصر إنسانًا حقيقة إلا بالإسلام, يعني أن الإنسان لم يفهم مرتبته من الوجود – فهما يجعله يعتقد أن كل ما في السموات والأرض خلق لأجل الإنسان, وأن الإنسان خلق لله – إلا بالإسلام، حتى بلغ بالمسلم من معرفته بقدر نفسه، وفهمه منزلته من الوجود

---

(1) إشارة إلى الآية (2) من سورة المائدة : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب).

بما بين له رسول الله ﴿ﷺ﴾ من كتاب الله تعالى، أن بعض الصحابة كان إذا أمر رسول الله ﴿ﷺ﴾ أمرا يتعلق بالجهاد، أو بأمور لمصلحة خاصة يقول : أرأي يارسول الله أم وحى؟ فإن كان الرأى فعندى كذا وكذا، وإن كان الوحي فسمعا وطاعة[1].

أين كان هذا النور والعلم قبل الإسلام؟ أكان والإنسان يعبد العجل؟ أم كان والإنسان يعبد الشمس والجعل (الجعران)؟ أم كان والإنسان يعبد الملوك ويجعل لهم معابد ؟ أم كان والإنسان يعبد الرسل ؟ فيقول النصارى : المسيح ربنا، ويقول اليهود: عزير ربنا؟ أم كان والإنسان يعبد أحجارا ينحتها بيده؟.

فبعيشك أيها المنصف ؛ أي مجتمع قبل الإسلام كان يمثل مدينة كاملة فاضلة يتعاون أهلها على الخير الحقيقي؟ فإن كان الإنسان مضطرا إلى التعاون الذي يوجب الاجتماع فإن ذلك ليس خصوصية لهم, فإن كثيرا من أنواع الحيوانات تتعاون على جلب ما ينفعها ودفع ما يضرها, وكفى بالإنسان تعسا – وهو ابن الإنسان الذي أسجد الله له ملائكته, وخلق له كل ما في السموات وما في الأرض جميعا منه, وخلقه لعبادته سبحانه – أن يكون اجتماعه كاجتماع النمل أو النحل أو الطيور أو الأنعام السائمة.

طهارة الحس والنفس في المجتمع الفاضل :

معلوم أن الإنسان الذي هو إنسان مكون من قوتين : قوة النفس, وقوة الجسم, ولا أعني بالنفس النفس الحيوانية التي هي الدم, إنما أعني بالنفس القوة الناطقة المدركة المفكرة المدبرة المبينة في كتاب : (معارج المقربين)وكتاب : (النور المبين) التي سبق الكلام عليها.

فهو من جهة جسمه حيوان متنجس بكل نجاسات الحيوانات : من الظلم والحرص, والإباحة والحمق والجهالة, فإذا أعانته النفس الناطقة على تلك النجاسات, كان شرا من الشيطان الرجيم, ولا بد له من إزالة تلك النجاسات, ولعلك ياأخي تتعجب من هذا, فلا تعجب, فإني سأبين لك في هذا

(1) يشير بذلك إلى ما ورد أنه في غزوة بدر، وقف رسول الله ﷺ وآله على أدنى مكان من ماء بدر فتقدم الحباب بن المنذر وكان رجلاً عالماً ببدر ومائها وقال يارسول الله : أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة. قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة.

الموضوع بمثل ظاهر أنواع تلك النجاسات, التي هي في الإنسان, ولا يمكن زوال تلك النجسات بالعقل فقط, فإن تلك النجاسات لها سلطان على العقل, فتجعله عونا لها, ولا يمكن أيضا أن تزول كل تلك النجاسات بالعمل بكل الكتب السماوية السابقة, لأن كل كتاب سماوي أنزله الله لشفاء مرض من الأمراض الإنسانية, وإزالة نوع من أنواع النجاسات بحسب مقتضى كل زمان, حتى بعث الله خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام وأنزل عليه الكتاب الذي هو شفاء من كل الأمراض الإنسانية [1] وطهارة من كل النجاسات الآدمية, فمن لم يتبع رسول الله ﷺ لم يكن إنسانا بالمعنى, وإنما تكون صورته صورة إنسان, وحقيقته حيوان, وسيتمنى يوم القيامة أن يكون ترابا.

هنا يحسن أن أمثل لك النجاسات النفسانية بالنجاسات الجسمانية, التي هي في فطرة الإنسان, وأبين لك أنه لا بد من إزالتها, وإلا كان الإنسان أقل من الحيوان : من البديهي أن في الإنسان أمراضا ونجاسات لا يمكن إزالتها إلا بوصايا الإسلام, كما أن في بدن الإنسان عوارض وأمورا موجودة عند الولادة, أو توجد حالا فحالا بحكم يقتضي ذلك, وهي تعد نجاسات لابد من إماطتها كلها أو إماطة فضولاتها, وذلك كالسلى [2] الذي يكون فيه الولد, والسرة والقلفة والعقيقة الموجودة في الصبي في الولادة, وكالأظافر وشعر العانة وشعر الإبط.

كذلك في نفس الإنسان عوارض هي نجاسات وأمراض نفسانية يلزم إماطتها, كالجهل والشره والعجلة والشح والظلم, وقد أثبت القرآن تلك النجاسات, وأمر الله بإماطتها وإماطة فضلاتها بقوله تعالى : ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [3] فذكر أنه مخلوق منه كما ترى, ثم أمره أن ينحيه عن نفسه وأن لا يستعين به فقال تعالى : ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [4] وقوله تعالى : ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [5] ثم أمره بالعلم والعدل في غير موضع من كتابه سبحانه بقوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [6] وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ

---

(1) يشير بذلك للآية (82) من سورة الإسراء : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا ﴾

(2) هو ما يكون حول الطفل عند ولادته

(3) سورة الأنبياء آية 37

(4) سورة الأنبياء آية 37

(5) سورة الأحزاب آية 72

(6) سورة العنكبوت آية 43

يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (1) وقوله تعالى : ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ (2) ثم قال : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (3) فأمره باتقاء الشح مع إحضاره إياه, وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ (4) فوصفه بالكفور والقتور في قوله تعالى : ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (5) وقوله سبحانه : ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ (6) فأدخل عليه (كان) تنبيها على أن ذلك فيه غريزي موجود من أول نشأته, وليس بطارىء عليه, وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (7) فنهى عن أكثرالجدال.

فالإنسان يحتاج أن يستعمل هذه القوى في الدنيا بالحالة المناسبة, حتى يحفظ رتبة الوسط بين عالم الملائكة والحيوانات والشياطين, مع طهارة نفسه مما يزيد على الحالة الوسطى منها, فإنه إن لم يتطهر من النجاسة بمجاهدة نفسه, لم يجد سبيلا إلى نعيم الآخرة, بل ولا إلى طيب الحياة الدنيا, وذلك أن من تطهر تجلى عن قلبه الغشاوة, فيعلم الحق حقا, والباطل باطلا, فلا يشغله إلا ما يعنيه, ولا يتناول إلا ما يعينه, فيحيا حياة طيبة كما قال تعالى :﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (8) فلا تصير ذخائره في الدنيا وبالا عليه وعذاباً كما قال الله تعالى : ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (9) ويصير قلبه – إذا تطهر –مقر السكينة والأرواح الطيبة, كما وصف الله تعالى المؤمنين بقوله : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ

(1) سورة النحل آية 90
(2) سورة النساء آية 128
(3) سورة التغابن آية 16
(4) سورة المعارج آية 19-21
(5) سورة الإسراء آية 67
(6) سورة الإسراء آية 100
(7) سورة الكهف آية 54
(8) سورة النحل أية 97
(9) سورة التوبة آية 55

إِيمَانِهِمْ﴾ [1] وعرف الطريق التي بها التوصل إلى جنة المأوى, ومصاحبة الملأ الأعلى ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[2], فيسارع في الخيرات ويسابق إلى مغفرة من ربه.

ومتى بقيت نجاسته وتزايدت, صار قلبه قرارة شبه وآثام كما قال الله تعالى : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾[3] ولا يجد سبيلا إلى سعادة الدار الآخرة كما قال الله تعالى : ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [4] فنبه على أنه لا يصلح لجنته من لم تطهر ذاته عن أشياء هي مخلوقة فيها, وعلى هذا دل قوله تعالى : ﴿مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [5] فحق على الإنسان أن يراعي هذه القوى فيصلحها, ويستعملها على الوجه الذي يجب, وكما يجب, ليكون كمن وصفه الله تعالى بقوله : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [6].

وقد يقع للإنسان شبهة في أمر هذه النجاسات فيقول : أترى أن ذلك من عند غير الله ؟ فإن كان من عند غيره, فمن أين وجد ؟ وإن كان منه فما المعنى في أن أوجده في الإنسان ثم أمره بأن يزيله ؟ فيقال : ما من شيء أوجده الله أو أمكن أن يوجده إلا وفيه حكمة ومنفعة – وإن لم يعرف الإنسان ذلك – لكن من الأشياء ما نفعه في وقت مخصوص على قدر مخصوص, ثم إذا استغنى عنه أو زاد على قدر ما يحتاج إليه, يجب أن يزال وذلك ظاهر.

إذ من المعلوم أن السلى والسرة يحتاج إليهما لصيانة الولد في وقت, ثم يستغنى عنهما, فيكون إبقاؤهما يعد نجاسة, والشعر والظفر يحتاج إليهما إذا كانا على قدرمخصوص, وإذا زاد يجب إماطتهما, فتلك النجاسات والأمراض الفطرية في نفس الإنسان التي هي كالأعضاء الزائدة فيه المتقدم ذكرها, لا يمكن شفاؤه منها, وإزالتها منه, إلا باتباع وصايا رسول الله ﴿ﷺ﴾ وبالعمل بأحكام الإسلام قهرا, وإلا فإن الاجتماعات – وإن حصلت – لا تكون فاضلة, ولا يتكون منها مدينة كاملة بمعناها,

---

(1) سورة الفتح آية 4
(2) سورة القمر آية 55
(3) سورة الشعراء آية 221-222
(4) سورة المعارج آية 38-39
(5) سورة آل عمران آية 179
(6) سورة النحل آية 32

والأمر جلي لمن وضحت له حقيقة المدينة المنورة, وله أن يأتيني بمثالها ولو خيالا قبل الإسلام, وليبرهن على وجودها بعد أن ترك المسلمون العمل ببعض أحكام الإسلام, هي في الحقيقة لا توجد ولو تخيلا, اللهم إلا أن تكون مجتمعات ضالة أو فاسقة أومبدلة.

وسأشرح لك أيها المطالع المستبصر – أيدك الله ووفقك للعمل بشرائع الإسلام – حقيقة تلك المدن, وبعد فهمك تلك الحقائق يمكنك أن تحكم على المدن التي ليست إسلامية بأحكام تناسبها.

كل مجتمع لا بد وأن تكون له فضائل ومحاسن وكمالات يتعاون على نيلها, فالمجتمع الفاضل كمالاته وخيره وفضائله حقيقية, يتعاون رئيس المجتمع هو وكل واحد من أفراده على نيل تلك الكمالات, وتحصيل هذه السعادات.

أما المجتمعات الأخرى – التي ليست إسلامية – فقد انمسخت فيها تلك المعاني, ورانت الغايات والأغراض الدنيئة والآراء الفاسدة على قوة الفكر ولطائف القلب ونور العقل, حتى صارت القبائح محاسن, والرذائل فضائل, والنقائص كمالات, ولعن الله الطمع, وأبعد الله الأمل الفاسد.

المجتمع الفاضل رئيسه صورة لرسول الله ﷺ ممدة بروح الإلهام الرحماني, ينبعث منه هذا النور على أقرب العاملين به, فيمدون منه بروح الرحمة وحب العدالة وحقيقة الفقه وجمال الكرم, والرغبة الحقيقية في نيل النعيم الأبدي وحسن الأحدوثة فالآخرين, والخشية الحقيقية من القاهر المنتقم الجبار, وهكذا تنبعث تلك الأنوار من كل عامل إلى من هم دونه, حتى تسرى تلك الروح في أحقر عامل وأسفل طبقة من أفراد المجتمع.

المدينة المنورة :

لما كان لفظ مدينة كناية عن المجتمع الإنساني المتضامن المرتبطة أفراده ارتباطا تاما, الساعي كل فرد منه في طلب الخير الحقيقي للجميع, ودفع الشرور الحقيقية عن الجميع، حتى يمثل عائلة واحدة أو جسدًا واحدًا بشرط أن يكون سعي المجتمع لنيل الخير لكل فرد, وسعي كل فرد لنيل الخير للمجتمع, سواء كان هذا المجتمع الأكبر أوالأوسط, فإن العقل لا يمنع من نيل هذا الكمال لكل أفراد الإنسان على وجه المعمورة, وإن منعه الشرع, ومتى توفرت تلك الشروط كان المجتمع المتصف بتلك الصفات هوالمجتمع الفاضل, ولا يمكن أن يتكون هذا المجتمع بمعناه الحقيقي إلا بالإسلام, وذلك لأن الخير

الحقيقي من حيث هو خير لذاته, لا يمكن للعقل الإنساني أن يدركه, لغلبة الشهوة وتسلط الحمية, وحبس نور الفكر في سجن الحظوظ والأهواء, وتلك القوى الثلاثة التي هي : الشهوة والحمية والفكر, هي القوى التي بها نيل الفضائل الإنسانية والكمالات الروحانية إذا تزكت وتطهرت, فإذا لم تطهر من لقسها وتتزكى من نجاستها كان الإنسان بشهواته أدنى من البهيم الأعجم, وبحميته أضر من ضواري الوحوش, وبفكرته شر من إبليس اللعين.

ولم ينزل الله تعالى كتابا على رسول من الرسل قبل القرآن الشريف, جامعا لما به نيل الكمال الحقيقي, وشفاء الأنفس من أمراضها, وتجملها بأكمل أوصافها, وكبح جماح الشهوة وإطفاء نار الحمية, وتصفية الفكر من درن الحظوظ والأهواء, وقاذورات الأطماع والميول المهلكة, لأننا بتصفحنا التوراة والإنجيل, نتحقق أن التوراة بينت لنا أسفار الرسل السابقين وما تحملوه من الصعوبات في محو الشرك, وإزالة العقائد الباطلة, وحذرت من ارتكاب بعض الكبائر بغير بيان للحكمة العمرانية, ولا شرح لتدبير الفرد ولا تدبير المجتمع المنزلي, فضلا عن بيان سياسة المجتمع المديني, ولم توضح حكم تلك الأحكام من جهة علوم النفس لتنكشف أسرار الأخلاق الفاضلة, وتحصل حقيقة الرحمة في القلوب, ويرى الإنسان أخاه الإنسان بالعين التي يرى بها نفسه في كل أموره, فكانت التوراة يفهم منها الحكيم أن الله تعالى ينزل بعدها كتابا يبين مبهمها, ويفصل مجملها, ويكشف أسرار حكمها, ويزيد عليها ما لابد منه, مما ينال به الإنسان كماله النفساني والجسماني, حتى يكون إنسانا بمعناه, خليفة الرب وصورته, كما أخبرت التوراة.

وهذا الكتاب هو القرآن الذي به بلوغ الإنسان كماله المدني في الدنيا, والجسماني الروحاني في الآخرة, حتى يكون خليفة للرب سبحانه في الدنيا, وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر في الآخرة, ولو لم تكن فيها البشائر بهذا الكتاب, وبمن أنزل عليه لحكم القاريء لها أنها تبشر به, ولولا أن الأمر بديهي لسردت مثلا كثيرة من سفر التالوت بالتوراة, وأمثلة على الأصول التي أتى بها الرسل عليهم الصلاة والسلام قبل سيدنا ومولانا مُحَمَّد ﷺ.

هذا الإنجيل من تصفحه يراه كتابا يتضمن رواية حوادث مبهمة, تتضمن تاريخ رجل حصل على يده عجائب وغرائب مدهشة للعقول, وكل ما جاء فيه من الدعوة مؤسس على ترك العمل في تلك الدار الدنيا،حتى ترك السعي في نيل ما لابد منه، وترك معاملة الناس مطلقا، حتى لو أنهم ضربوا الإنسان يلزمه أن يعينهم علىضربه، حتى أمر بترك ما في اليد من المال، وتلك الرواية وإن صحت

بطرقها المعتبرة عقلا أو تاريخا، فإنا نسلم ما ورد فيها مما لا يحارب العقل ولا يخالف الشرع الذي شرعه الله للناس على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام، فلم يرد في الإنجيل إلا الوصايا بأخلاق تكاد أن تكون طرفاً لا وسطا، ولم يتضمن أساسا من أساسات العمران، ولاأصلا من أصول النظامات المدنية، ولا ناموسا من نواميس المنازعات التي تحصل بين الناس بالضرورة ؛ للزوم التبادل في المنفعة، والمنافسات في اللوازم.

فكأننا لو جمعنا التوراة والإنجيل، وحكمنا أنهما الكتابان اللذان لابد للمجتمع الإنساني من العمل بهما،لاختل نظام المجتمع، وانمحت الحضارة والمدنية، وتقهقرالمجتمع الإنساني إلى حالة البداوة الأولى، ولكنك أيها الحكيم المستبصر إذا قرأت القرآن وبيان رسول الله ﴿ﷺ﴾ له بالعمل والقول، لعلمت حق العلم أنه خاتم الكتب، ولتحققت أن كل مجتمع قبله لم يكن فاضلا بالمعنى، وأن كل مجتمع على غير تعاليمه ووصاياه مجتمع جاهلي، وهنا أبين لك الفضائل التي نالها المجتمع بالقرآن، والكمال الذي رقى إليه باتباعه للقرآن، والسعادة الحقيقية التي فاز بها بالقرآن.

المجتمع الإسلامي الفاضل:

لم يكن المجتمع الإسلامي متكونا بالاتفاق، ولم تتركب أعضاؤه من رجال نبغوا على أيدي حكماء فلاسفة، وتلك قضية بديهية حجتها التواتر.

ولكن القرآن الشريف بين بالتفصيل تدبير القوى الإنسانية، من أول سقوط رأس الإنسان من رحم أمه، بصريح العبارة، أو بعمله ﴿ﷺ﴾ فنبه على ما يلزم العمل به فى تقويم كل قوة تكون في الإنسان، فإن أول قوة تولد مع الإنسان الميل إلى الغذاء، فسن السنن اللازمة لتدبير تلك القوة، بالحالة التي يكون بها حفظ الصحة على الإنسان، وتقوية جميع أعضائه الرئيسية، ثم تتولد في الإنسان بعد تلك القوى قوة الغضب،فشرح اللازم لها من تدبيرها وتقويمها، ثم قوة الكرامة، فأيقظ القلوب إلى مراعاتها وحفظها على الطفل وتدبيرها، حتى تكون معراجا له إلى نيل الكمال الإنساني، والجمالات التي يكون بها المسلم كاملا في إيمانه بالترفع عن الدنايا، والبعد عن سفاسف الأمور، سر قوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ : (إن الله يحب معالي الأمور ويكره سَفْسَافها) [1] وقوله ﴿ﷺ﴾ : (علو الهمة

(1) في الطبرانى الكبير عن الحسن بن على.

من الإيمان) وقوله سبحانه وتعالى:﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [1] ثم تنشأ بعد ذلك قوة الشوق إلى المعارف، بالرغبة في معرفة ما يحيط به، وعلم خواصه.

وقد بين القرآن الكريم فضل العالم وأثنى عليه، وشنع على الجاهل، وحث رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ على التعلم وفرض علينا العلم، وجعل أول واجب علينا معرفة الله تعالى، والعلم والرغبة فيه– وبين للوالدين أن يعتنيا بتلك القوة في الولد – ومعرفة آياته، والفرق بين الملك والرسول والنبي والولي، والعقوبة، وفهم مكارم الأخلاق وما تنتجه، وكشف الوسائل التي بها تطيب الحياة الدنيا وتسعد الحياة الآخرة، كل ذلك بمثل تناسب قوة الشوق في الولد.

ثم تنشأ قوة الأثرة، فبين الطرق التي تنمي تلك القوة، وتجعلها عاملة في الاستئثار بالكمالات النفسانية، والمعارف والصناعات المفيدة، التي بها يكون الولد عاملا للنفع العام، راضيا بما لابد له منه من الضروريات الحيوانية، سر قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [2].

ربى رسول الله ﴿ﷺ﴾ على تلك المباديء الشريفة، سيدنا عليًّا بن أبي طالب كرم الله وجهه، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن عمر, وعبد الله بن عمرو, وعبد الله بن عباس وسيدنا ومولانا الحسن والحسين, بعد تربية السيدة الزهراء عليها السلام, وغيرهم ممن ولدوا في عصر الرسالة. وكل صحابي من أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ – وإن كان في سن الخمسين من عمره – فإنه ولد ولادة جديدة, وتربى تربية قرآنية, هذا مجمل ما ورد في تربية الطفل التربية الإسلامية.

ثم بين القرآن الشريف تربية المجتمع المنزلي, فجعل لكل فرد من أفراد العائلة حقوقا واجبة له, وحقوقًا واجبة عليه, وقد بين ذلك في أكثر سور القرآن, فلم تخل من الأوامر بالإحسان إلى الوالدين, والصلة للأرحام وأبناء القرابة حتى صار المجتمع المنزلي كجسد واحد, يعمل كل عضو للمجموع, وقد شرحت جملا من تدبير الفرد وتدبير المنزل في كتاب : (النور المبين) وكتاب : (معارج المقربين).

---

(1) سورة المنافقون آية 8.
(2) سورة الحشر آية 9.

الفرد المسلم كالمجتمع:

وعلى هذا النمط من تزكية النفس وتدبير الجسم تكون المجتمع الإسلامي, فأصبح الفرد الواحد من المسلمين كالمجتمع بالنسبة لما وجب عليه أن يقوم به لنفسه ولغيره, من نيل الخير الحقيقي, ودفع الشرور, فترى المسلم حقيقة حكيما عالما بعلوم النفس وأمراضها, وبالأدوية التي تعيد لها صحتها, والتدابير التي تحفظها عليها, والمجاهدات التي تزيد تلك الصحة, مداويا لغيره بعلمه وعمله, وحالته ومعاملته, طبيبا جسمانيا, عالما بأعضاء البدن الظاهرة والباطنة, وخواصها وارتباطها ببعضها, لأن القرآن كلفه أن ينظر في نفسه وفي الآفاق, وأن يبحث بفكره حتى يعلم خواص ما في نفسه وما فالسموات والأرض.

وأكثر آيات القرآن المجيد توجب على المسلم تحصيل العلوم التي تجعله مشاهدا لآيات الله, عالما بغرائب تصريف قدرته سبحانه, وعجيب حكمته في إبداع كل شيء, وتمييز كل نوع من المخلوقات بخواص لا يشاركه فيها غيره, فهو بمقتضى الواجب عليه يعلم أسباب الأمراض, ويعلم ما يدفعها من الحمية واستعمال مهيئات الشفاء, والشافي هو الله. وتراه فقيها عالما بأصول الدين, مكاشفا بمراد الحق في حكمة أحكامه, الأمر الذى يجعله يحترز عن الشبهات, ويستنبط الجزئيات عن مقتضى ذلك بالمعاملات من الكليات. تراه يقول الفصل, ويحكم بالعدل ويبين حججه, وينصف المظلوم من الظالم بما أراه الله, وما من به عليه من النور من قلبه.

ترى المسلم يحسن سياسة المجتمع المدني على الوجه الذي يجعل المجتمع كجسد واحد, ائتلافا وتعاونا, حتى يكونوا متحابين بروح الله (القرآن), معتصمين بحبل الله (القرآن), مقتدين بنور الله (رسول الله ﷺ).

ترى المسلم قائدا حكيما, عالما بفنون سياسة الجهاد, مع الرحمة والرأفة, شجاعا كريما لا يهزم له جيش, ولا يتجاوز الوسط : العدالة والعفة.

ترى المسلم معلما إماما يقتدى به, مبينا لأسرار الحكمة, موضحا لغوامض المسائل, عالما بطرق التعليم, ومقدار كل نفس وما يناسبها من العلم والصناعة والفنون.

ترى المسلم أستاذا عظيما في كل الصناعات, لأن القرآن المجيد أوجب عليه معرفة الآثار المحيطة به, لا معرفة تحديد وكمية, بل معرفة تجعله خليفة عن ربه, ينتفع بماأودعه الله فيها من الخواص بالتركيب والتحليل والخلط والمزج والتطهير, وغير ذلك مما أوجبه الله على المسلم, وجعل في العمل به رغد عيشه في الحياة الدنيا, ومشاهدة قدرة ربه فيها, والسعادة في الآخرة, فما من صناعة من الصناعات, أو فن من الفنون, ولا علم من العلوم المتعلقة بتدبير النفس أو البدن أو بسياسة المجتمعات أو بخواص الكائنات, إلا وقد بينها الله تعالى في القرآن إجمالا وتفصيلا, وشرح ذلك رسول الله ﴿ﷺ﴾ قولا وعملا.

ترى المسلم – مع علمه بكل تلك الفنون والصناعات – يميل إلى أشرف الصناعات وأرفعها, وينافس في أكملها وأسماها, ومن تتبع سيرة الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى أواخر الدولة العباسية, يظهر له أن المسلم كان من علمه بكل الفنون والصناعات, لا يرضى إلا بأشرفها, فيشتغل بالصناعات الدنيئة لنفسه وأهله كالحياكة والخياطة والغزل وتنظيف الحجرات وتطهيرها، ومعاونة الخدم على ضروريات المنزل من حلب الشاة وخدمة نفسه وترقيع الثياب وخصف النعال، وغير ذلك تواضعا لله تعالى وتزكيةلنفسه، وكان أكثر من يعمل هذه الصناعات الدنيئة في المجتمع الإسلامي غير المسلمين.ولكن المسلم تراه بين كتبه، أو على منصة القضاء، أو على ظهر جواده مجاهدا في ذات الله، إعلاء لكلمته سبحانه، ومحوا للظلم والباطل، وقطعا لجراثيم الفساد،أو فوسط حلقة الدرس، أو سائحا يجوب الفيافي والقفار لاستكشاف مجهولات الأرض والنباتات والأنهار والجبال والمعادن، أو على ناقته في جلب المتاجر لإخوته المؤمنين، أو في وسط مزرعته لتربية النباتات، أو على كرسي الإمارة أو الوزارة، أو في معامل الصناعات، يشحذ فكره لاختراع آلة نافعة للطب أو الزراعة أو التجارة أو الجهاد، أو في مجلس صلح، أو ملبيا لصارخ، حتى لا تكاد ترى مسلما إلا ويرى الخيرعند أخيه كالخير عند نفسه، ومساعدة أخيه مساعدة لنفسه، وكل فرد منهم ينافس في أنفس الصناعات، لا ليكون عظيما في تلك الدار الدنيا، أو غنيا أو مشهورا أو مقربامن الأمراء والوزراء، أو ذا جاه يستعمله في أغراضه السافلة، بل ليكون عضوا عاملافي جسد المجتمع الإسلامي، عاملا لكل الجسد، كل ذلك عملا بما أوجبه عليه القرآن، واقتداء بعمل رسول الله ﴿ﷺ﴾.

ورب جاهل بأسرار القرآن والسنة يقول: إني أبالغ في بيان تلك الحقيقة، فأجيبه :الجهل ليس عذرا، ليس بينك وبين أن تراني مقصرا في الموضوع، عاجزا عن وفائه، وتلوم عليَّ في تقصيري، إلا أن

تطالع تاريخ العرب قبل إشراق تلك الشمس العلية، وما كانوا عليه من الجاهلية وخبث النفوس وشظف العيش، ودناءة الهمة، حتى كان أكبرهم نفسا يرى أن نهب مال جاره هو الرزق الحلال.

وتقرأ تاريخهم بعد أن سطعت أنوار تلك الشمس، كيف أبدلهم الله تعالى فصاروا ملائكة روحانيين حكماء أمناء علماء حلماء، أخضعوا الأمم وساسوهم، ومحوا الظلم والشرك، ونشروا الفنون والصناعات، حتى سرت تلك الأنوار القدسية فعمت المعمورة، إما بنور الهداية والتوحيد والإسلام لله رب العالمين، أو بالعدالة والرحمة ومحو الظلم.

هذا هو المسلم، وتلك أعماله وأحواله، وكان المجتمع الإسلامي جسما صحيحا مستقيما تام الأعضاء متناسبها، في عنفوان الشبيبة، كل فرد منه متجمل بتلك الشمائل، عامل بما أوجبه عليه الإسلام.

شروق أنوار الإسلام على أيدي أئمة الهدى :

ظهرت تلك الفضائل والكمالات بطريقة أدهشت عقول المفكرين، وحيرت ألباب كبار المستعمرين، حتى تحقق حكماء بني الإنسان أن إشراق تلك الأنوار الكاملة وظهور تلك الفضائل الحقيقية وانتشارها على المجتمع الإنساني بأسرع من انتشار ضوءالشمس على الأفق، ليس من قدرة بني الإنسان، وإنما هو من تصريف قدرة القادر الحكيم, الذي أنزل على نبيه الكريم ﷺ: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [1] وإلا فما هي العدة ؟ وأين هي العدد ؟ وكلهم كانوا لا يتجاوزون عدد الأصابع ألفا, ولم يقف بهم العزم عند حد حتى ملكوا شواطيء بحر المانش بأوربا, ومياه الباسفيكي بالصين والهند وجبال القوقاز, حتى أصبح معظم رؤوس القارات مسمى بأسمائهم, مثل بوغاز جبل طارق, ورأس الرجاء الصالح (رأس الرجل الصالح) وغيرهما, ولم يفتحوا تلك القارات من همج كسكاني أمريكا وشمال أوربا في عصرهم, أو متوحشين كسكاني أواسط أفريقيا وأستراليا.

ولكن محوا ظلم ملوك جبابرة طغاة, حصنوا ملكهم بالعدد والعدد, وشادوه على الجبروت والقهر, وأحاطوه بآراء المفكرين من نوابغ مهرة السياسين, حتى كانت العقول لا تتصور أن يزول هذا الملك, ولا أن يتغير هذا الحال, إلا باختلال المجموعة الشمسية, فلم يكن إلا عشية أو ضحاها حتى صار

(1) سورة الحديد آية 25.

الإنسان أخا للإنسان, وانهارت عروش الجبابرة الطغاة, واندكت دعائم صرح المدن الجاهلية الضالة والمبدلة, وأشرقت أنوار المساواة والحرية والعدالة والمدنية الفاضلة, بشروق أشعة أنوار الإسلام على أيدي أئمة الهدى الأناسي صورة, الملائكة حقيقة.

قاموا والقرآن إمامهم, وما شهدوه من أعمال النبي ﷺ قائدهم, حتى ملأوا الأرض عدلا ونورا, بعد أن كانت ممتلئة ظلما وجورا, وهُمْ هم الذين لم تكن لهم في المدينة قدم, ولا بالحضارة معرفة, وليس عهدهم بالبداوة ببعيد, لم يكن عُدَدُهُم إلانفوسا أشفقت على المجتمع الإنساني من غضب الله ومقته, وقلوبا ملئت رحمة على بني جنسهم وإخوانهم في الإنسانية, فقاموا لخلاصهم بإخلاص, والله معهم, لأنهم سارعوا في مرضاته سبحانه, وبذلوا نفوسهم في إعلاء كلمته ﷻ.

فهم هم الذين خلصوا بني الإنسان في الحقيقة ونفس الأمر من خطايا الشرك, وكبائر توهم أن الإله يحل في عبد, ورذائل الأخلاق الوحشية, وسوء الصفات الإبليسية, حتى صار من دخل الإسلام أشبه بالملائكة, ومن استظل بظلهم من أهل الذمة متمتعين بلذة الحياة الإنسانية, لأن الأعمال بنتائجها 0 لا ما يدعيه المدعون أنهم نصارى من أن المسيح خلصهم، لا والله، ولكنهم أوقعوا أنفسهم في أشر مما كانوا عليه قبله عليه السلام، والأمر جلي لذى عقل يعقل. لم يفتحوا تلك الفتوحات بخدع السياسة، ولا بخبث المقاصد والسعي بتفرقةالجماعة، وإغراء أفراد الأمة على بعضهم،وانتشار المفاسد في المجتمعات ببعثة رجال الفساد، ونساء الفساد، تارة بفساد أخلاق المجتمع بفعل الفواحش : من انتشار الخمر والزنا بينهم وآونة بفتح بيوت ظاهرها للتعليم، وباطنها هاوية للفضائل الإسلامية، والتضامن الإسلامي، والعوائد الحسنة القومية، وقصم عُرى الإخاء، وفتح أبواب الشكوك والريب، وتقبيح المحاسن أمام النشء، وهم في دار التعليم، حتى ينتقش فقلب التلميذ بغض أهله وعوائدهم، ويتشبع قلبه بحب العوائد الخبيثة، فينشأ على بغض دينه، ويكون آلة صماء في أيدى الذين لا يريدون الخير لبني الإنسان – وخصوصا للمسلمين– كما يفعل أعداء الإنسانية ووحوش هذا الزمن، وتنزه الإسلام والمسلمون عن تلك الوحشية، وعن الخبائث الإبليسية.

ودام هذا المجد للمسلمين حتى مازج نور الإيمان في القلوب ظلمات الأهواء والحظوظ، وخالط الإخلاص لوجه الله درن الأمل والعلو في الأرض بغير الحق، وحجب جمال الدار الآخرة عن العقول زهرة تلك الفانية، فانقصمت عرى العصبة الدينية، وانحلت عقدة الثقة بالله، فاستبدلوا الإخلاص لذات الله بالإخلاص لأنفسهم، والصدق في معاملة الله بالصدق في نيل أغراضهم، وجعلوا كتاب الله

وراءظهورهم، وسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ نسيا منسيا، فجعل الله بأسهم بينهم شديدا، وسلط بعضهم على بعض، ومكن العدو منهم سر قوله ﴿ﷺ﴾ في الحديث القدسي : (إذا عصاني من عرفني سلطت عليه من لم يعرفني) [1].

فأصبح المسلمون وهم كثيرو العدد، أقوياء الأبدان، على أرض من الكنوز خصوبةوجو صاف معتدل، أذلاء لمن لم يكن لهم مدينة تذكر، ولا عمل يشكر، ولم يرسل منهم نبي، ولم يظهر فيهم ولي، بل كانوا هم وزنوج أفريقيا وأمريكا سواء، هؤلاء في المنطقة الملتهبة وهم في المنطقة الثلجية، سوط نقمة من المنتقم وعاجل عقوبة من القهار، حتى أصبح من يدعي الإسلام يجهل ما أعداء الإسلام من فضائله، فهم يبحثون عن فضائل الإسلام لينهجوا على نهجه، والمدعون للإسلام بألسنتهم يرون أن ماكان عليه أئمة الهدى ليس شيئا في جانب ما عليه من سلطهم الله عليهم للنقمة، وكفى بذلك عمى عن شمس مشرقة ضحوة، ومن لم ير الشمس ضحوة في جو صاف لا يُلام إذا جحد القمر والنجوم.

الفضائل العمرانية بالإسلام :

المدينة مدينة الإسلام، والحضارة حضارة الإسلام، والفضائل فضائل الإسلام،والمجتمع الفاضل مجتمع الإسلام.

أقول ذلك وأعلم أن المفتون بحظه وشهوته، السابح في نهر بهيميته، المسترسل فى غلوائه، قد زينت له نفسه الخبيثة خبائث الأعمال ورذائل الأخلاق، فحكم بضلاله وأفتى بجهالته أنه في عصر مدينة وفضائل، حتى بلغت به الجهالة والعمى عن معرفة نفسه وتدبيرها منفردة ومجتمعة إلى درجة صار يضرب بها المثل في الرقي فيقول : نحن أبناء القرن العشرين، قد يجهل ما أقول بل ينكره عليَّ، وأنا والحمد لله لا أخاطب حيوانا يرتع في غيضته، يجهل ما له وما عليه، وإنما أكتب لإنسان بمعناه.

---

(1) ومصداق قوله ﴿ﷺ﴾: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها، قلنا: يارسول الله أمن قلة بنا يومئذ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تنزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن، قالوا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهة الموت " (رواه أحمد في مسنده)

ولما كان هذا المجد الحقيقي، والعز والخير الحقيقيان لا تنال إلا بإعداد العدد والعدة، للقيام بنيل تلك السعادة المنشودة ولا تحصل السعادة إلا بالتعاون، ولا تعاون إلا بالمجتمع،ولا يتكون مجتمع فاضل إلا إذا علم أفراده الخير الحقيقي واتحدوا على طلبه،ولا اتحاد إلا بتعصب حقيقي، لذلك أحببت أن أتكلم على التعصب.

الباب الثاني
التعصب للدين

تعريف التعصب :

التعصب مأخوذ من العصبة، وهي أطناب المفاصل التي هي قوة للأعضاء، فالأخ المعين، أو الأخ المساعد يسمى عصبة للأخ.

ولما كانت الفضيلة من كل شيء أوسطه، وكان التعصب للدين المخرج عن كمالاته ومحاسنه بالغلو المفرط رذيلة،وهو الطرف الأعلى، وكان الإهمال في التعصب في الدين المؤدي إلى تعدي حدود الله سبحانه وترك العمل بوصاياه جلت قدرته وهو الطرف الأسفل، وأرذل الرذائل، وكان التعصب للدين بمعناه الحقيقي وهو العمل بوصاياه على علم، وبذل النفس والمال لحفظه وإقامة حدوده، والتجمل بآدابه وكمالاته،والقيام بإظهار جماله وأنواره، ودفع ما يشينه مما ليس منه،وكبح الساعي في تغيير شيء منه،ومحاربة العامل على تغييره، وهو عين الفضيلة، بل هو أفضل الفضائل، وكان من الشرف أن يكون الإنسان متصفا بالتعصب للإسلام مفتخرا بذلك، وهو الفخر حقاولو أنكر عليه أهل الرذائل، أو سعى في مضرته أهل المفاسد، أو خاصمه أهل الجهالةوالغواية. ومن ير أن التعصب للإسلام بهذا المعنى من الجهل أو من الجمود، فهو خفاش لا يرى الشمس ضحوة في النهار الصحو.

إذا تقرر ذلك فكل عاقل حكيم يفتخر بأن ينسب إليه التعصب في الدين، ويرى ذلك من أكمل نعم الله تعالى، ويجاهر بأنه متعصب للدين، ليقتدي به المؤهلون للتجمل بتلك الفضيلة الكاملة.

نتائج التعصب للدين

ينتج من التعصب للدين خيرات لا تحصى ونعم لا تستقصى، نقتصر منها في هذا المختصر على أربعة معان هن أمهات تلك الخيرات كلها :

أولها : سعادة الفرد في نفسه.

ثانيها: سعادة المجتمع.

ثالثها : العمل للخير العام.

رابعها : السعادة الأبدية في جوار رب العالمين ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [1] وإليك تفصيل ما أجملناه من المعاني الأربعة.

أولا : سعادة الفرد في نفسه

إن الإنسان إذا تفضل الله عليه، بأن جمله بفضيلة التعصب لدينه سبحانه، مالت نفسه إلى العلم بأصول الدين وفروعه، ورغبت في فهم أسراره وحكمه، واشتاقت إلى مكاشفة أنواره، ولانت جوارحه إلى العمل بأحكامه، فكان متجملا بأجمل مكارم الأخلاق مسارعا إلى الخير، متصفا بالرحمة والشفقة، والبر والصلة، والصدق والأمانة، والعطف على الفقراء، وإيثار إخوته المؤمنين على نفسه فيما يلائم نفسه وهواه، منافسا فيما به كمالات نفسه، وتجريدها من فطرها التي جبلت عليها،واستبدال رذائلها البهيمية وخبائثها الإبليسية، بمعاني الصفات التي رغب فيها رسول الله ﴿ﷺ﴾ ودعا إليها كتاب الله تعالى، مسارعا إلى فعل الأكمل منها، والأجمل من معانيها، حتى يكون إنسانا وسطا روحانيا بكمالاته النفسانية، ربانيا بأخلاقه المحمدية،ظاهره يمثل كمالات السنة، حتى يكون بدلا من أبدال الرسالة، ومشكاة من الصور المحمدية، وقلبه بيت عامر باليقين الحق، والإخلاص لذات الله تعالى، والحب في ذات الله تعالى، والرغبة والرهبة والتوكل والتفويض.

فيكون فردا جامعا للكمالات الروحانية والملكوتية، وللمحاسن الإنسانية الإسلامية، فيضع الله له الحب في عوالم ملكوته،حتى تحن إليه الملائكة، ويشتاق إليه الفردوس الأعلى، ويلقى عليه محبة منه سبحانه، فلا يراه إنسان– بل ولا حيوان أوجن – إلا أحبه، ويكون إماما للمتقين، معظما حتى عند العصاة والكافرين، ومن كانت هذه حاله وتلك صفاته، يعيش في تلك الدار الدنيا راضيا مرضيا،

---

(1) سورة النساء آية 69

هاديا مهديا،لا تفي العبارة بما أعده الله له في برزخه ويوم معاده، معنى قوله سبحانه : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَ كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]

كل هذا الفضل العظيم نتيجة التعصب للدين, المؤدي إلى القيام بحقوقه والعمل بوصاياه, وقهر النفس على التمسك به, والغيرة على دفع الشبه عنه, ومناوأة من يتساهل في إقامة حدوده, أو من يسعى في إخفاء جمالاته, وكم أعز الله بالتقوى ذليلا, ورفع بالغيرة على الدين وضيعا, وأكرم بإحياء سنته مهيناً, ومكن لمن بين آياته في الأرض بالحق, وأعز بالإيمان ذليلا, هذا أمر بديهي لا يشك فيه إنسان.

وإنا لنرى أهل الشرور والفسوق والجحود يجلون التقى وتشعر قلوبهم بالهيبة له, وتشرح صدورهم إذا قابلوه, أودعا لهم, وهو إنسان مثلهم ويمكنهم أن يكونوا مثله, ولكن الله أعز بعزه من عمل بوصاياه, وجمله بجماله.

هذا ما يناله الفرد في نفسه إذا تعصب لدينه, التعصب الذي هو الفضيلة والواجب شرعا.

ولعل جاهلا بلذة الحياة الحقيقية في الدنيا التي لا تطيب إلا بالتعاون, والنعيم الأبدي في الآخرة, الذي لا ينال إلا بالتعصب الحقيقي للدين تعصبا يؤدي إلى محاربة النفس, وقهرها على عمل الأفضل والأكمل من أحكام السنة والكتاب, لعل هذا الجاهل قد يسترذل التعصب للدين, ويظنه من القبائح أو من قلة الأدب والذوق, جهلا منه بنتائج التهاون بالدين للمجتمع في الدنيا والآخرة, ويحسن له حظه المضر, وهواه المضل, أن الأفضل ترك التعصب للدين, والتقاعد عن تلك النسبة حتى يكون الإنسان مدينيا مألوفا.

فأقول لهذا الغوي : إن جهالته بأسرار دينه, وغفلته عن علم كمالاته ؛ وانقياده لنفسه وحظه؛ ورؤيته ما عليه من يدعون الإسلام من التهاون بالدين ؛ أو من الأعمال التي يدعون أنها من الدين وليست من الدين ؛ جعلت ذلك الغافل عن معارج رقيه وطرق سعادته هاويا في مهاوى الهلاك, يقبح

(1) سورة السجدة آية 17

التعصب للدين, ولو أنه تفكر في أسرار دينه, وفقه حكمة أحكامه, وعلم حقيقة الخير والسعادة, لكان أول من يصبح مشهورا بين المجتمع الإسلامي بأنه متعصب لدينه.

كيف تتعصب للدين ؟ :

ليس التعصب للدين بالإنكار على الفرد المتهاون بحالة تنفر, ولا بالتشنيع على المتساهلين بأساليب تبغضهم, إنما التعصب للدين حقيقة : أن تتعصب لدينك أولاً على نفسك, لتجملها فتقوم عاملا بحقيقة أحكامه, حتى يسهل عليك أن تعمل ما كان يصعب عليك, ثم تجاهد إخوانك, كمجاهدتك لنفسك. فإذا أنست من نفسك ومن إخوانك العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وجب عليكم أن تنبهوا قلوب إخوانكم إلى كمالات الدين بعملكم ابتغاء مرضاة الله, وبقولكم الحكمة, مع المحافظة على أكمل الأوصاف المرضية شرعا, من الغيرة على الدين, والأخلاق, ومع الزهد فيما لا حاجة لكم إليه, وطلب ما لابد لكم منه من وجوهه الشرعية, وبذل ما لا يضركم بذله لأهل الحاجة, حتى تكونوا أئمة بعملكم وقولكم سرقوله تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [1] الآية, ومعنى ذلك أن الذين يأمرون بالمعروف, لابد أن يكونوا على أكمل الأوصاف المرضية شرعا, من الغيرة على الدين والعمل بالقلب والجوارح واللسان, على طبق العلم.

فإذا تكون في المجتمع الإسلامي من تفضل الله عليهم بمواهب التعصب للدين, أشرقت أنوارهم على جميع المجتمع فتكونت فيهم عصبية للدين, لا يخافون الموت ولا يخشون الفوت, يرون الحق أولى بهم من أنفسهم, وأعز عليهم من أرواحهم, وأنه الخير الحقيقي المقصود لذاته, وكل خير تدعو إليه النفس لم يكن بالحق وللحق, يرونه شرا وهلاكا, عند ذلك ينزل الله السكينة عليهم ويثيبهم فتحا قريبا.

قال تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾[2].

---

(1) سورة آل عمران آية 104
(2) سورة النور آية 55

بين الله تعالى بهذة الآية الشريفة أن جميع الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالجسد الواحد, كل واحد منهم ككل عضو من الجسد, لأنه أخبر سبحانه بما أعده للجميع من الاستخلاف في الأرض, وتمكين الدين لهم, فجعل هذا الفضل كالخير الذي يمنحه الوالد لأولاده الذين هم في رتبة واحدة من النسب, بل هذا النسب الإلهي هو النسب حقا, الذي به نيل الخير في الدنيا مجدا وعلوا في الأرض بالحق, والفوز بفردوس الله الأعلى يوم القيامة, وكفى بنسب الإسلام شرفا أن ننال به ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ولابد لأعضاء الجسم من أعصاب تربطها, كما أنه لابد للنسب الإسلامي من عصبة تقوى به الجامعة, قوة يحفظ الله بها دينه, ويقيم بها حدوده, فالتعصب للإسلام كالأعصاب للجسد, فلا تماسك للجسد إلا بالأعصاب, كما لا حفظ للإسلام إلا بالتعصب له من مجتمعه الذي يمثل حقيقة الأخوة, قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1] فبين الله لنا في تلك الآية الشريفة, حقيقة النسب الإسلامي, بأن جعل كل مسلم أخا لكل مسلم, حتى جعل الجميع فروعا لأصل واحد, متصلة تلك الفروع ببعضها, والكل متصل بالأصل الواحد, فجعل الأصل الذي هو والد الجميع رسول الله ﴿ﷺ﴾, وجعل كل مسلم من لدنه ﴿ﷺ﴾ إلى يوم القيامة ابنا له ﴿ﷺ﴾ كما سنوضح ذلك في الآية الآتية, ثم إنه أوجب على كل ولد بار, حقا مقدسا لوالده, وحقا مقدسا لكل أخ من إخوته.

وكلنا نعلم أن الإخاء يجعل كل فرد من المسلمين هو عين الآخر, إلا أنه شخص آخر, ومعنى ذلك أن كل فرد من المسلمين, يفرح بما يفرح أخوه, ويتألم بما يؤلمه, ومن لم يحس بهذا الوجدان فليس بمسلم حقا, وإن ادعى ذلك, فليس الإيمان دعوى, وإلا فمتى يتألم عضو من الجسد ولا يتداعى له الجسد بالسهر والحمى ؟ فكل من ادعى الإسلام وحرم هذا النسب الإلهي, فدعواه باطلة, انظر إلى لطيف قوله تعالى : ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فإن معنى هذا الإصلاح أن يقوم لإخوته المؤمنين بما به صفاء حالهم, وصلاح ذات بينهم, وإصلاح شأنهم ببذل المال والنفس, ثم أعقب ذلك بقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾أي : خافوا الله مراقبة لحقوقه التي أوجبها عليكم, من الرحمة بكل مسلم, والشفقة عليه, لعلكم تفوزون برحمة الله تعالى, بقدر ما قمتم به من الرحمة لإخوانكم المسلمين, وقوله

(1) سورة الحجرات آية 10

تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بمعنى : لترحموا. لأن الترجي لا يليق بالله تعالى, وذلك لأن المترجي شاك أي : متوقع حصول الأمر.

صلة المؤمنين برسول الله ﴿ﷺ﴾:

قال الله تعالى : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [1], وفي رواية : ﴿وَهُوَأَبُوهُمْ﴾.

كاشفنا الله تعالى في هذه الآية مكاشفة ثبتت بها الحجة ووضحت بها المحجة, لأننا نعلم أن الإنسان أولى بنفسه من والديه, وكيف لا ؟ وهو يحس بآلام نفسه ولا يحس بها والداه الذين هم أولى به من الأجانب ولكن رسول الله ﴿ﷺ﴾ أولى به من نفسه التي هي أولى به من والديه, فيجب علينا أن نسلم له تسليما لا تنازعنا فيه نفوسنا, ولا تمنعنا عنه آلامنا, ولتأكيد هذا النسب الشريف, أخبر أن أزواجه أمهاتنا, بيانا لأن هذا النسب ليس معنويا فقط, بل هو حسي أيضا, فأوجب علينا رعاية آداب الأم معهن حسا ومعنى, وزاد على ذلك فأمرنا أن لا نكلمهن إلا من وراء حجاب.

هذه الآية شراب طهور لأرواح المؤمنين, بها تحصل وصلتهم برسول الله ﴿ﷺ﴾ أنت تعلم أن الله تعالى سوى بين المؤمنين في هذا النسب, حتى لا يفخر أبيض على أسود, ولا هاشمي على تركي, فإنا جميعا أبناء رسول الله ﴿ﷺ﴾ وإنما الكرامة بالتقوى, وإن الشريف الهاشمي, لو خالف هذا النسب فارق دين الإسلام, ولا ينفعه نسبه الطيني, وإن الرقيق النجي إذا اتصل بهذا النسب, صار أكرم على الله تعالى, وهذه هي العزة بعينها التي يجمل الله بها كل من عمل بهذا النسب, قال تعالى :﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [2].

رفع الله هذا النسب الإلهي رفعة ؛ تفضل على أهله فوصفهم بصفاته الإلهية, وحقر النسب الطيني حسا, إذا خالف الشريف الهاشمي سنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ بمعنى : إذا أظهر الإسلام على جوارحه وأخفى الكفر بقلبه.

---

(1) سورة الأحزاب آية 6
(2) سورة المنافقون آية 8

فوصف المنتسبين المتجملين بهذا النسب بصفة العزة, التي هي صفته تعالى, ونفاهاعن الذين ادعوا هذا النسب, فأظهروه على جوارحهم وأخفوا الكفر في قلوبهم بجعلهم أذلاء, ونفى العلم عنهم, فإن معنى قوله تعالى :﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وصف المؤمنين بالعزة, وأنهم يخرجون الأذلاء من المدينة لنفاقهم, وأثبت الجهل لمن فارق هذا النسب بقلبه, فمن تعصب لقرابته الطينية, أو افتخر بشريف نسبه, أو بمجد آبائه, ولم يلتحق بهم – بالتمسك بهذا النسب الإلهي – فهو هالك ولا محالة, ولا يثبت هذا النسب إلا لمن تشبه برسول الله ﴿ﷺ﴾ عقيدة وعبادة وعلما وحالا ومعاملة, وقام لإخوته المسلمين بما قام به لهم أبو بكر ﷺ, وقام لله ولرسوله ﴿ﷺ﴾ بما أوجبه الله عليه, حتى ينتظم في عقد هذا النسب الإلهي. قال الله تعالى : ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾ (1)

كلنا يعتقد أن الله تعالى أحاط علما بمن سبقت لهم الحسنى, وبمن سبقت لهم السوءى, ولكنه سبحانه وتعالى أخفى سر قدره عن جميع خلقه, فأظهر حكمه الشرعي الذي كلف به العالم أجمع, وأخفى غيبه المكنون الذي تميزت فيه الحقائق عن جميع خلقه, ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ (2).

فهو سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين بهذا الخطاب, إنذارا لضعاف الإيمان الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم, ممن لم يذوقوا حلاوة هذا النسب المقدس, ولم يكتب في قلوبهم الإيمان, ولم يشرح سبحانه صدورهم للعمل بما أوجبه هذا النسب عليهم, فأنذرهم أن المرتد منهم يجعل الله ردته خيرا للمؤمنين, وشرا عليه, فهي بشرى لنا, ونقمة على ضعاف الإيمان, وذلك أن الله سبحانه إذا قدر في أزله السوء لعبد, أقامه فيما يكرهه سبحانه, فتراه يجاهر بالشر إلا إذا أكره, فإنه يخفى الشر ويظهر الخير خوفا من السيف, وإظهار الخير لا ينفعه بشيء, فإذا تمكن رجع إلى ما انعقد قلبه عليه من الكفر, وهذا أمر كان يحزن رسول الله ﴿ﷺ﴾ وأصحابه, والله سبحانه وتعالى أرحم برسوله عليه الصلاة والسلام

(1) سورة المائدة آية 54
(2) سورة الجن آية 27

منه بنفسه فبشره بتلك البشرى, أنه سبحانه وتعالى يؤيده بأهل المحبة الإلهية من المتجملين بالنسب الروحاني.

وهذه الآية تطمئن بها قلوب المؤمنين, وتنخلع منها قلوب المنافقين, وأنت تعلم أن المنافقين كانوا يكرهون أن ينفقوا على من عند رسول الله لأنهم ليسوا متصلين بنسبهم, والمتصل بالنسب الروحاني المحمدي متصف بقوله تعالى : ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [1]

هذه الآية الشريفة تدل على أن نسب الإسلام أقوى من نسب الأبوة, لأن الإنسان إذا ضاق به الحال في بلد غربة, هاجر منها إلى أخرى فيها والده أو ولده, فإذا وصل إليها محتاجا, لا يجد ما يسره لدى أقاربه, ولكن المسلم إذا هاجر من أرض الأعداء إلى إخوانه المؤمنين, يكون منشرح الصدر بهم, ويكون له فوق ما هو لنفسه, كما أخبرالله عنهم بقوله تعالى ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾, ورجل يؤثرك على نفسه أقام الحجة على أنك أحب إليه من نفسه, فتكون أحب إليه من والديه وأولاده, لا يتحقق هذا الحب والإيثار إلا بالنسب الإسلامي, ومن آثرك على نفسه, كيف لا يتعصب لك تعصبا ببذل ماله قبل مالك, ودمه قبل دمك ؟ وإذا كان هذا تعصب المسلم للمسلم, فكيف يكون تعصبه لدين الله تعالى ؟ وبالتعصب صار كل مسلم سيدا غنيا قويا.

ثانيا : سعادة المجتمع الإسلامي

بديهي أن المجتمع – وأعنى به المجتمع الفاضل – الذي يمثل الجسد الصحيح الكامل, المتوسط في قواه الجسمانية والروحانية, توسطا يجعل كل عضو يقوم بواجبه لبقية الأعضاء, معنى قوله ﷺ : (مثل المؤمنون كالجسد الواحد إذا مرض منه عضو تداعى له بقية الجسد بالسهر والحمى) [2] وقوله ﷺ : (المؤمنون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا) [3], وسر قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [4] هذا هو المجتمع الذي أشرح نتائج تعصبه للدين

---

(1) سورة الحشر آية 9.
(2) أخرجه أحمد في مسنده.
(3) أخرجه البخارى في كتاب الأدب.
(4) سورة الحجرات آية 10.

الإسلامى, وليس كلامي في مجتمع لم تتوفر فيه تلك المعاني من المجتمعات الضالة أو الجاهلية أو المبدلة, الذين شرع لهم غير شرع الله, أو قادهم الحظ على غير طريق مستقيم, أو عملوا على غير هدى الأئمة الراشدين, والعلماء الراسخين, فإن تلك المجتمعات كلها ليست في نظر العلماء بمجتمع حقيقة, ولكنها تشبه غيضة اجتمع فيها أنواع كثيرة من الوحوش استقل كل نوع منها بمناوأة الآخر، ولم يخرجهم هذا الاجتماع عن حقيقة الحيوانية ولا عن أخلاق البهائم المهملة.

إذا اتضح مرادي لك أيها الأخ ؛ أبين لك النتائج الحسنة التي ينتجها تعصب المجتمع للدين الإسلامي، يقول الله تعالى : ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [1] وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّوَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾[2] وقال ﴿ﷺ﴾ : (كل رجل من المسلمين علىثغر من ثغور الإسلام، فإن تهاون إخوانك فاشدد لئلا يؤتى الإسلام من قبلك) فالمجتمع الإسلامي إذا تعصب للإسلام التعصب الحقيقي بمعناه الحقيقي، عمت الرحمة جميع الخلق من بني الإنسان، وغيرهم من الحيوانات والنباتات، بل والملائكة.

حقيقة التعصب للدين :

لعلك تعجب من كلامى هذا قائلا : كيف ينتج التعصب الرحمة ؟ وكيف تعم تلك الرحمة النباتات والحيوانات والملائكة ؟ وإني أعتقد أن التعصب عبارة عن غيرة تنتج عداوة فجرأة فسفكا للدماء، فأجيبك : إنك فهمت غير الحقيقة، وجهلت روح الإسلام.

التعصب للإسلام هو مطالبة النفس بالقيام بما أوجبه، وقهرها على العمل به، وإحياء أسراره، وإعلاء كلمته، وفي ذلك انتشار العدل والمساواة والرحمة بكل بني الإنسان، لأن القرآن الكريم أمرنا بمحو الظلم والرذائل الأخلاقية، وحسن المعاملة لكل إنسان، لا فرق بين المسلمين وأهل الذمة ممن قبلوا أن يكونوا في ذمة المسلمين وعهدهم من اليهود والنصارى، أمرنا بأن ننزل الكبير كوالد، والمساوى كأخ، والصغير كولد،فنعظم الكبير، ونرحم الصغير بما يجب له،ونعز المساوى، ونؤثر الأخ على أنفسنا

(1) سورة آل عمران آية 133.
(2) سورة المائدة آية 2.

فيماهو من حظوظ الدنيا، وننافس في كمالات أنفسنا، لنحظى بالحظوة في دار النعيم فمجوار ربنا سبحانه وتعالى.

ينال المجتمع بالتعصب العز، الذي يكون به كل فرد ممتعا بنعيم الحياة الطيبة، حياة الضمير، ولذة النفس الفاضلة، فيكون الحق هو الحكم العدل، لا يذل الفرد لغيرالحق، ولا يحكم عليه بالحق إلا نفسه، ينتج التعصب في المجتمع الغنى الحقيقى عن ذل الفقر للغير، والاحتياج إليه في الصناعة أو التجارة أو الزراعة أو الإصلاح، فيكونالمجتمع الإسلامي المتعصب للإسلام كمصدر الرحمة العامة والغنى الحقيقى، والخيروالسعادة لكل بني الإنسان، ومبعث أنوار الرشاد والإصلاح والهداية والفلاح لكل موجود، ويكون الفرد من هذا المجتمع صورة الإنسان، وكمالاته كمالات الروحانيين من الملائكة، وأعماله أعمال الرسل الكرام لا يقهرهم قاهر، لأنه يقهر نفسه على الحق، ويجاهدها في ذات الله مجاهدة تجعلها تشاهد أنوار ملكوت الله الأعلى، وتتلذذ بأعمال المقربين من الصديقين والشهداء والصالحين.

مزايا التعصب للدين :

بالتعصب للدين يقوى سلطان المسلمين فتكثر الفتوحات، وتفتح الكنوز، ويدخل الناس في الدين عندما تظهر أنواره وتباشر بشاشته القلوب، وترى العيون معاملة المسلمين التي هي حقيقة الرحمة، والعدالة والمساواة، والنصفة من النفس للغير، ومن الوالد والولد للأجنبي، فتنجذب قلوب العالم بعامل الرغبة والحب، عندما تتضح لعقولهم أسرار الإسلام، وتلوح لبصائرهم أنواره، فيحيون الحياة الحقيقية في الدنياوالآخرة، والمسلم المتعصب يفوز بخير الخيرين أو بهما، والمتساهل يعاقب بشر الشرين أو بهما، والمسلم المتعصب يحبه الله ورسوله ﴿ﷺ﴾ والملائكة والعلماء والأتقياء وأئمةالمسلمين، ويعز بين الناس، ويحيا ذكره بعد موته، ويؤسس لمن بعده من قومه مجدا باقتداء المسلمين بعمله وقوله وحاله، ويقوى به سلطان المسلمين، فهو خير للمسلمين حيا وميتا، وسعادة لأهله في الدنيا والآخرة.

التساهل في الدين وعواقبه :

المتساهل في دينه يبغضه الله ورسوله ﴿ﷺ﴾ والملائكة والعلماء والأتقياء وأئمةالمسلمين، ويلحقه الذل والهوان بين الناس، ويسوء ذكره بعد موته، ويلبس من بعده من ذريته الخزى والخيبة، ويضعف به سلطان المسلمين، فهو شر حيا وميتا، وشقاء لمن بعده من آله.

المتساهل بدينه مرض عضال بين جماعة المسلمين، الأحرى بالمسلمين أن يطاردوه بأشد مما يطاردون به السيل الجارف، والحريق المتلف، والطاعون المهلك، قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْأَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ﴾ (1).

بالتساهل في الدين زال سلطان المسلمين، وتبدلت محاسن الحق بقبائح الباطل، وذل أهل العزة، وعز أهل الذل، وأصبح من يدين بعبادة الأحجار، أو من يعبدون إنساناً،أو يعتقدون أن جسما صنعوه بأيديهم إله يعبد، أو أن صورة صورها إنسان هي رب خالق، أو أن إنساناً أكرمه الله بالمعجزة- كما أكرم من قبله ومن بعده من الرسل بأكمل وأعظم مما أكرمه به - إله أو ابن الإله، ينظرون إلى الدين الحق بعين الازدراء، ويقيمون الحجج الباطلة التي تلبس منتحلها الخزى، وتحكم عليه أنه أقل من الجمادات، لتجرده عن العقل الحيوانى، فضلا عن الإنسانى.

كل ذلك من نتائج تساهل أدعياء الإسلام الكاذبين في دعواهم الإسلام، لقولهم :إن التعصب للدين جمود وتقهقر، فجروا على المجتمع فساد العقول بالخمر، وفساد النسل بالزنا، وفساد الأخلاق الفاضلة بالربا، والفشل بترك التوكل على الله، والتفرقة بالاعتماد على أنفسهم، وحب الخير لها والحرص على المال والجاه.

المتساهل في الدين هو أشد أعداء المسلمين، وألد خصومهم قبل الكفار المحاربين،والأعداء المناوئين، والله يحفظ الإسلام والمسلمين من كل كافر بقلبه، مؤمن بلسانه، ينطق بالكلمة، ويعمل لإطفاء نور الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، قال الله تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾ (2).

---

(1) سورة المائدة 33.
(2) سورة المائدة آية 54.

الفرق بين العصبية للإسلام والعصبية في الإسلام:

لعل جاهلا بمراد رسول الله ﴿ﷺ﴾ يعترض عليَّ قائلا : إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال: (لا عصبية في الإسلام) [1] فاهما- لضعف عقله- أن مدلول كلامه ﴿ﷺ﴾ نفي التعصب مطلقا، وهذا ما لا يقول به طفل من أطفال المسلمين، فإن صريح لفظ الحديث الشريف بَيِّنٌ لا يحتاج إلى توضيح، وذلك لأن مدلول : (لا عصبية في الإسلام) معناه أن العصبية يجب أن تكون للإسلام، لا في الإسلام، فإن العصبية في الإسلام تفرقة لجماعة المسلمين.

دليل ذلك قوله ﴿ﷺ﴾ لرجل فارسى من الصحابة، في غزوة من الغزوات عندما قال للمشرك : خذها وأنا الفتى الفارسى، فغضب رسول الله ﴿ﷺ﴾ وقال له : (هلا قلت :وأنا الفتى الأنصارى) قال له ذلك عليه الصلاة والسلام وقد رئى الغضب الشديد فى وجهه الكريم مما جرى على لسان ذلك القائل بكلمته التي هي عين التفرقة، وما ينبغى لمسلم إلا أن تكون دعواه للإسلام، وكل ما يدعو إلى الاتحاد والوئام.

وهذا الحديث الشريف المتقدم أساس من أسس الدين القويم يجلى لنا الحقيقة، وهى قوله ﴿ﷺ﴾ : (المسلم أخو المسلم) أى : أن الأنساب والأحساب والعصبية للآباء والقبائل محيت بالإسلام، وصار التعصب للإسلام، والشرف بالإسلام،والإسلام هو النسب والحسب،بدليل قوله ﴿ﷺ﴾ : (كل نسب منقطع إلا نسبى) فهذا الحديث الشريف الذي يظنه سخيف العقل حجة على ترك التعصب للدين، نعم هو حجة، ولكن عليه، وبرهان, ولكن على بطلان دعواه, لأنه نص ظاهر في وجوب التعصب, بقوله : (إلا نسبى) فهو الذي يتعصب له تعصبا تقوى به كلمة الله, وتحيى به سنن رسول الله, ولا يحسن التعصب للنسب الجسماني إلا إذا كان شرف هذا النسب بسبب الدين, كتعصب المسلم لنسب مولانا الحسن أو الحسين, أو تعصبه للأنصار أو الخلفاء الفاتحين فيكون تعصبا للدين.

اللهم فاشهد أني أشكرك على أن وفقتني وأعنتني على التعصب للدين, وأسألك أن تمن عليّ بالصدق في التعصب للدين.

---

(1) يؤيد ذلك الحديث الشريف الذي رواه أبو داود في مسنده "ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية".

مضار ترك التعصب للدين :

إذا لم يكن المجتمع الإسلامي متعصبا للدين, أهملت حدوده, وهتكت حرماته, وترك العمل بأوامره, فيستوجب غضب الله وزائد مقته, نعود بالله من ذلك.

لا شك أن مجتمعا يناله سخط الله سبحانه وتعالى بترك التعصب لدينه, يصبح كالبهائم الراتعة, تؤكل ولا تأكل, حتى يصير المجتمع بأجمعه كغابة اجتمعت فيها أنواع الوحوش المفترسة, وحيوانات أخرى صالحة لغذائها, فيفترس القوى الضعيف حتى يمحق بعضهم بعضا, كما يشاهد في المجتمع الإنسانى في هذا العصر, من المنافسة في إعداد العدة لسفك الدماء, والتفنن في اختراع الآلات الجهنمية, لا لمحو الظلم والضلال, بل للاستيلاء بالظلم والكبرياء على الأمم المستكينة الضعيفة, كل هذا الظلم أنتجه ترك التعصب للإسلام, وإهمال العمل بوصاياه.

مضى على المجتمع الإسلامي قرون طويلة وهو رافل في حلل السعادة والأمن والأمان, لا فرق بين المسلم والذمي, لأن المسلم متعصب لدينه يأمره بالرحمة والشفقة وحسن المعاملة, والخوف من ظلم عباد الله, والنظر إلى جميع بني الإنسان بعين الرأفة والحنان, والسعى في إرشادهم إلى سعادة دنياهم وآخرتهم, حتى تساهل المسلمون في التعصب لدينهم, ونافسوا في زهرة الحياة الدنيا, وسلت سيوفهم, وصار بأسهم بينهم شديدا على أنفسهم, وكثر عددهم وملوكهم, وضعف يقينهم, ونقص إيمانهم, فذلوا بعد العز, وضعفوا بعد القوة, واحتقروا بعد السيادة, لأنهم بترك التعصب للدين, تركهم الله ولم يكن معهم, وكيف لا ؟ ومذ كانوا متعصبين لدين الله, قليلا عددهم وعددهم, كان الله معهم لتعصبهم لدينه, فما أعظم ياأخي ما تفضل به سبحانه وتعالى عليهم من العز والمجد, والسيادة في الدنيا, وما منحهم من حسن الأحدوثة بعد موتهم, وما أخفاه لهم من قرة أعين يوم القيامة, مما لا يمكن أن يصفه الواصفون, من الرضوان الأكبر والنعيم المقيم.

سعادة المجتمع الإنسانى :

هذا لأن التعصب للإسلام, وبذل ما في الوسع للعمل بوصاياه سعادة عامة لجميع المجتمع الإنسانى, كيف لا ؟ والإسلام إنما يعمل على عمارة القلوب بعواطف الرحمة والحنان والرأفة والشفقة, والحرص على كل ذى كبد رطبة, وإيثار الغير بالخير, وجهاد النفس على عمل الخير خالصا لوجه الله, والمسارعة في جلب الخير لكل حي ودفع الضر عنه كائنا من كان, مع استحضار أن كل موجود صنعه الله وأثر دال علىعجائب قدرته وغرائب حكمته, فالمسلم يشاهد حكمة الحق وقدرته بعيون بصيرته,

ويلحظ معانى الآيات الدالة على وحدانيته ومعانى أسمائه وصفاته بلطائف قلبه, فله من جهة قلبه مشاهد روحانية, تجعله مفطورا على جميل الأخلاق من العطف والرحمة, والود واللطف, والرغبة في نجاة المجتمع, بما تجمل به من القيام بواجب الشريعة الغراء, لأنه خليفة الله المشار إليه في قوله جل شأنه : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [1]. فكل مسلم كامل خليفة في الأرض عن الرب جلت قدرته, يتصرف فيها بقدر ما استرعاه الله تعالى, تصرفا منطبقا تمام الانطباق على الأصول التي وضعها له سبحانه, والأنوار التي تنبلج في قلبه من سر قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾ [2] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ [3].

جمال المسلم ظاهرا :

أما جمال المسلم من حيث ظاهره, فلين الجانب وخفض الجناح لإخوته المؤمنين, والنظر إلى ما هم عليه من خير الأعمال, وجميل الصفات ليتشبه بهم, وينافسهم فيها, وغض البصر عن عيوبهم التي ستروها عنه, لأن الله تعالى أمره بترك التحسس والتجسس عن المسلمين[4], مع كراهيته الشديدة سبحانه لمن يجهل الواجب عليه من المسلمين, فيكشف ستر الله عن أخيه المسلم بنشره بين الناس عيوبه, ويحب سبحانه حمل جميع أمور المسلمين على الأجمل منها, حتى لا يخطر على قلبه الشر لأحد, مع إخلاص النصيحة لجميع أفراد المسلمين عامتهم وخاصتهم, وبذل الجهد في بيان جمال الإسلام لغير أهله قولا وعملا, حتى تتضح حقائقه, وتنكشف ستائر الأوهام عن أصوله, وتمتزج بشاشته بالقلوب.

هذا ما هو عليه المسلم الحقيقي ظاهرا وباطنا, ولا يشك عاقل أن تلك المعانى لو اجتمعت في أفراد لا يتجاوزون جمع القلة كان الله معهم, ومن كان الله معه لا تدرى نفس ما له من المجد والسعادة والسلطان في الدنيا, والخير الحقيقي يوم القيامة.

---

(1) سورة البقرة آية 30.
(2) سورة البقرة آية 282.
(3) سورة الفتح آية 29.
(4) ورسول الله ﴿ﷺ﴾ علمنا ذلك في الحديث الذي رواه أبو داود « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تتعقبوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عوراته، ومن تبع الله عورته يفضحه في بيته ».

وأى إنسان عاقل يتمثل تلك المعاني وتنكشف له حقيقة جمال التعصب للدين, ولايفتخر بأنه متعصب لدينه ؟! ولكن الإنسان عدو لما يجهل, ولو تعلم المسلم ما يجب عليه أن يتعلمه من الدين لظهر له الحق جليا, ولسارع إلى الخير الحقيقى, والله سبحانه وتعالى يجملني وإخوتي المسلمين بجمال ديننا, ويمنحنا جميعا الصدق والإخلاص لذاته, والسعادة في الدنيا والآخرة, آمين.

ثالثا : العمل للخير العام

الخير هو الغاية الأخيرة من أعمال العقول والقلوب والأبدان, الصادرة عن الحكمة والروية, وقد تكون الوسائل للخير خيرات, كالصناعات, والحكمة النظرية والعلمية, واكتساب الفضائل, واجتناب الرذائل, فالخير العام هو المقصود للكل, ويختلف عن السعادة, بأن السعادة تختلف باختلاف الأنواع والأفراد, فقد تكون سعادة فرد مضرة غيره.

ولما كانت الخيرات والسعادات الحقيقية لا تنال إلا بحصول الحب والأنس, والتعاون الحقيقي الموجب لأن يؤثر كل فرد أخاه على نفسه في الخيرات والسعادات, معتقدا أن ذلك هو الخير له, ولا يكون ذلك الحب والأنس والإيثار إلا بالعمل بأحكام السنة والكتاب, والغيرة على إقامة حدودهما وإحياء آدابهما وجمالهما, ونشر أنوارهما بين المجتمع بغيره, عن رحمة وشفقة وحب خالص لنجاة العالم.

من ذلك تعلم سر الاجتماعات الدينية, فقد ندبنا إلى الاجتماع, لأن الله تعالى أمرنا بالاجتماع في اليوم خمس مرات, وأمر أهل المدينة جميعا بالاجتماع في كل جمعة مرة في صلاة الجمعة, وأمرنا بالاجتماع في كل سنة مرتين في صلاة العيدين, وباجتماع جميع أفراد المسلمين في العمر مرة في الحج, وجعل ذلك فرضا واجبا وحكما لازما, قياما بواجب مقدس علينا لذاته العلية أولا, ثم ليحصل الحب والأنس والألفة بين أعضاء الجسد الواحد, فتتصل جميع أعضاء الجسد بالقلب, ويتصل القلب بجميع أعضاءالجسد، والقلب هو الخليفة الأعظم أو نائبه، وأعضاء الجسد جماعة المسلمين، وتكون هذه الاجتماعات كلها كتطهير لكل عضو حتى يقوم بالواجب عليه لبقية الأعضاء، ابتغاء مرضاة الله تعالى، ونيلا لفضله ونعمته.

وكلما كان المجتمع متعصبا للدين، غيورا على العمل بوصاياه، حريصا على القيام بأوامره، عمت الخيرات جميع أفراد المجتمع، وانتشرت الصناعات والعلوم والفنون،وفتحت كنوز الأرض وخزائنها، وفتحت أبواب السماء بالغيث النافع للزرع والضرع، حتى يعم الخير كل ذي كبد رطبة من الحيوانات

ومن المجتمعات التي ليست بمسلمة، فيكون التعصب للشريعة الغراء هو في الحقيقة الخير الحقيقى المقصود للكل.

الرد على من زعم مضرة التعصب للدين:

قد يظن بعض من أعمى بصيرتهم الضلال المبين أن التعصب للإسلام بوجهه الحقيقى يسبب مضارا للمجتمع الإنساني، وذلك لجهله المركب وسخافة عقله، ولو أنه ألقى السمع لأسرار القرآن الحكيم، وظاهر السنة المحمدية، لعلم حق العلم أن المسلم مكلف بكشف أسرار المادة، والبحث بفكره في خواص الكائنات، وإظهار ما أودعه فيها الله سبحانه وتعالى من المنافع والخيرات، والآيات والبركات.

أمر الله تعالى المسلم بإعداد العدة لمحو الظلم والجهالة، أمره بالسعي في مناكب الأرض ليأكل من رزق الله، أمره بتعلم العلوم، وجعل العالم حيا والجاهل ميتا، أمره بتدبير نفسه منفردا ومجتمعا، وجعل الحسنة بعشر أمثالها، أمره بالرحمة والرأفة والمسارعة إلى الخير، والعمل في الدنيا لنيل الخير الحقيقى الدائم في الدار الآخرة، لأن كل مسلم ــ بالمعنى الحقيقي ــ عامل من عمال الله تعالى، وخليفة عن ربنا سبحانه وتعالى.

فهو من جهة كونه عبدا: يتجمل بأكمل حلل الرهبة من عظمة مبدعه وخالقه القادر القاهر، ويتصف بكمال الرغبة في الفضل العظيم من مولاه المنعم المتفضل المعطي الوهاب اللطيف الرءوف. ومن جهة كونه خليفة عن ربه: مكلف أن يعمل بنفسه وعقله وبدنه في هذا الكون الذي استخلفه ربه سبحانه وتعالى عنه فيه، حتى كلفنا ربنا جلت قدرته أن نجول بعقولنا لتنكشف لنا أسرار إبداع الخلق وإيجادهم، بمحكم قوله وتعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر﴾ [1] الآية.

كلفنا سبحانه وتعالى أن ننظر إلى ما خفى عن أنظارنا من أسرار القدرة وغرائب الحكمة، وآيات التدبير والمشيئة، وحظر علينا سبحانه أن ننظر إلى هذا الكون العظيم كما ينظر الحيوان الأعجم،

(1) سورة الغاشية آية : 17 – 21

بصريح قوله تعالى:﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [1]، ومعنى ذلك_ والله تعالى أعلم _ أنه سبحانه يقول: لا تقفوا في نظر السموات والأرض، ولكن افتقوا رتق تلك الآثار بنور الأفكار وعيون البصائر، حتى تظهر لكم آيات عجائب قدرتى، وبينات غرائب حكمتى، ودلائل وحدانيتى. وأوجب على كل عاقل أن يكتشف الأرض ويشهد ما فيها من الآيات الكبرى، وماخلقه سبحانه وتعالى على أيدى عباده من الصناعات والآثار الدالة على كمال تدبيره،وعلى أن المسلم خليفة الرب حقا، وطالبه سبحانه وتعالى أن يسارع إلى العلم ليعرف نفسه، ويفتح له كنوز غوامض الأسرار في نفسه بقوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [2].

فالمسلم بمعناه أقامه الله تعالى عاملا بقدر ما قدره له وأراده، فهو يعمل بحكم الخلافة فيما استرعاه الله فيه، فيكون خليفة عن الرب على نفسه حتى تزكو وتطهر،وتسارع إلى نيل كمالاتها فيحصل لها الفلاح، ويكون ممن أثنى الله عليهم بقوله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فَجُوَرَهَا وَتَقْوَاهَا قَد أَفْلَحَ مَنْ زَكاها وقد خاب من دساها﴾ [3] الآية.

فالمسلم في كل حركة وسكنة، ونفس ولمحة وأقل من ذلك ؛ قائم لله تعالى في كل وقته، بعمل واجب لنفسه، أو عليها لله تعالى ولرسوله ﷺ ويتضمن هذا العمل عمل الخير الحقيقى لمن له عليه واجب، من والدين وأولاد وإخوة ولخاصة المسلمين وعامتهم، فكل عمل المسلم خير في الحقيقة ورحمة.

الدواء الحقيقى الذي به شفاء المجتمع :

وسيف الإسلام وسوطه ووعيده هو الدواء الحقيقى الذي به شفاء المجتمع من عضال الداء، والمسلم في محرابه وفي درس علمه، وفي مجلس الصلح، وفي بذل النفس والمال لأهل الحاجة، هو عين المسلم على ظهر جواده يفلق الهامات بسيفه، وقد تكون الرحمة أشمل والخيرات أعم بعمل المسلم وهو على ظهر جواده.

---

(1) سورة يونس آية 101.
(2) سورة فصلت آية 53.
(3) سورة الشمس آية 7 – 10.

وليس المرض السريع العدوى الذي يجب على أهل المدينة أن يطاردوه بالحول والطول، بأضر من مرض المجتمع بذى نفس خبيثة شريرة ظالمة غاشمة، فسيف المسلم أنفع للأرض وأهلها من الأمطار الهاطلة عليها، [1] لأنه يدفع الظلم والجور، والشرور الإبليسية، والأخلاق البهيمية، وبه تطيب الحياة وتنمو الخيرات، وتكتشف الصناعات وتتسع التجارات، وتعمر المساجد ويستتب الأمن، ويحصل الأنس والمحبة، يكون به الإنسان عزيزا بعد الذل، غنيا بعد الفقر، قويا بعد الضعف، لأنه بسيف الإسلام،يصبح الإنسان لا سلطان عليه إلا لله ولا حكم إلا لله، ولا يكون لأحد سلطان عليه، إلا إذا أذل نفسه بمخالفة الحق.

وليس الخليفة الأعظم على عرش ملكه – ما دام المسلم ناهجا على الصراط القويم – إلا أخا له مساويا له، يجمعه وإياه المسجد في الصلاة في صف واحد، فيقف ملك المسلمين بجوار أصغر مسلم، قد سوى بينهما الدين، بحيث لا يتميز الملك العظيم بمنصبه عن ذلك السوقة، فيقف الملك خاشع الأطراف واضعا وجهه على التراب رافعا يديه إلى مولاه بذل، لا يتميز بمنصبه عن الفقير المهين، ولا يعلو بمركزه عن الخادم المسكين، إلا إذا ارتكب المسلم دنيئة تظهر فيذل للحق ويخضع لحكمه، وكذلك يكون أهل الذمة مع المسلمين.

وهذه العيشة أشبه بعيش الجنة راحة وأمنا، فيكون المسلم في الدنيا لا يسأل إلاربه، ولا يخاف إلا ذنبه، لا سلطان عليه ولا قاهر له إلا مولاه الذي أبدعه، ولا يذله لأحد إلا نفسه إذا خالفت الشرع، وتعدت حدوده، ومتى خالف الشرع وتعدى حدوده وترك التعصب لدينه؛ كان المخالف مريضا يخشى على المجتمع منه، ووجب شرعا وعقلا التحرز من شره.

وإذا كان تعصب المجتمع للدين ينتج تلك النتائج كلها؛ من فراغ القلوب من الهموم وراحة الأبدان من الخوف عليها، صفت الأفكار ونمت العقول، ونشطت الأبدان، وسعى كل فرد لخير المجتمع، فأصبح المجتمع الإسلامي كالجسد الواحد يعمل كل عضو لخير سائر الأعضاء، وتكشف الأسرار، وتنتشر الصناعات المفيدةللخير والسعادة، ويصبح الإنسان آنسا بالإنسان لا يناوئه، محبا للإنسان لا

---

(1) بدليل ما رواه ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: " يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة، وحد يقام في الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين عاماً"

يخدعه،وتعم الرحمة القلوب، والشفقة الأبدان, وتتوجه القلوب والأبدان إلى اختراع ما يسهل جلب الخيرات, ودفع المضرات عن الإنسان، ويتجلى الله لعباده المتعصبين لدينه بفضله العظيم وكرمه العميم.

مدنية الإفرنج:

ولعل جاهلا بحقيقة الخير والسعادة ــ ممن يتلذذون بآلام الغير، ويفرحون بإذلال الغير، ويسارعون إلى استعباد الغير بالقوة القاهرة ــ يعترض على قائل: إن مدنية الإفرنج مؤسسة على أساس الحياة الوحشية، وعيشة الحيوانات المفترسة الغشومة الظالمة.

ودليل ذلك، ما أنتجته مدنيتهم من استعمال قواهم الشهوانية والوحشية، في اختراع المهاوى الجهنمية لبنى جنسهم، فلا تمضى ساعة من الزمن إلا وقد بلغوا من القسوة مبلغا في الإنسان فاق الوحوش الكاسرة، وفي الظلم حدا فاق ظلم السبع الجائع، فكم اخترعوا آلات للمقذوفات، وطيارات لرمى صواعق العذاب من الأفق، حتى قد بلغ بهم الظلم والتوحش إلى حد أنهم جعلوا السم الزعاف في تلك المقذوفات، ليسرعوا بأخيهم الإنسان إلى الهلاك، نعوذ بالله من مدنية الظلم والجهالة، مدنية أسست على شهوات البهائم، وشيدت على دعائم التوحش وحب الانتقام والميل إلى فطرهم الشيطانية، أراح الله عباده وبلاده من شرورهم وظلمهم إنه مجيب الدعاء.

نتائج تلك المدنية الجاهلية:

مدنية الإفرنج مدنية فاقت في التوحش والانتقام والدمار والإهلاك كل مدنية من بني الإنسان قبل الإسلام، حتى في المجتمعات الشبيهة بمجتمعات الوحوش من بني الإنسان، الذين كانوا يأكلون لحوم إخوتهم من المجتمعات القاطنة في أواسط أفريقيا وغيرها، فإن التاريخ أنبأنا أن المصريين القدماء فتحوا فتوحات كثيرة، وكذلك الأشوريين والبابليين والكلدانيين والعرب الجاهلين، والفرس وغيرهم من أهل المدنية الجاهلية المؤسسة على القوة القاهرة، ومع ذلك فإن التاريخ أنبأنا أن الأمم المقهورة كانت سريعا ما تتشبه بالأمم القاهرة وتفنى الفاتحين فيها، وكم أفنت مصر وغيرها أمما فاتحين، حتى لا يمضى قرن من الزمن إلا والكل مصريون عادة ولونا وشكلا، ذلك لأن الأمم الفاتحة كان في قلوبهم الرحمة على إخوانهم في الإنسانية، والشفقة على بني نوعهم في الآدمية.

أما مدنية بني الأصفر فإنها مدنية سباع مفترسة، ذلك لأن الله نزع الرحمة والشفقة من قلوبهم، وجعلهم أشره من السباع، وأجرأ من النمر؛ وإلا فأين الهنود سكان أمريكا الحمر الذين كانوا يقدرون

بالملايين عددا ؟ بل وكان لهم حضارة وأين حضارة دولة الآستيك ومدينة ألاتكا بجنوب أمريكا مع بقاء آثارهما الدالة على علو مداركهم ؟ أبيدوا بقسوة الأسبان طمعا في الذهب، وأين مسلموا الأندلس الذين نشروا الحضارة والرحمة والعلم بأوربا وقاموا بالعطف لينفعوا أوربا فكوفئوا بأعمال محكمة التفتيش؟ وما هي محكمة التفتيش.

محاكم التفتيش:

فى أواخر دولة بني الأحمر، وهي بقية من بقايا دولة الإسلام في الأندلس وكانت قاعدتها غرناطة كان أهلها منشقين على أنفسهم، فأخذ الأسبان يستولون على أطرافها فأخذوا منهم (مالقة) سنة 892 ثم وادي آسن، ثم عرض ملك الأسبان وهو فرديننند الكاثوليكى، على صاحب غرناطة أن يدخل في طاعته، مقابل أموال يعطيها له، ويقيم في أي مكان يشاء، فأبى المسلمون ذلك، حينئذ أقبل العدو، وحاصر غرناطة سنة896، فأفسد الزرع، وقطع الأشجار، وهدم القرى، وبعد سبعة أشهر من الحصار، اشتدت الحال على من بالبلد، فمالوا إلى الصلح، وكتبوا شروطا بينهم وبين عدوهم، وكانت 67 شرطا، أهمهما تأمين الصغير والكبير في النفس والمال والأهل، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وربوعهم وعقارهم، ومنهم إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعته, وألا يدخل النصارى دار مسلم, وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك, وأن لا يولى على المسلمين نصراني ولا يهودي, وألا يجبر من أسلم على الرجوع إلى النصارى, ولا يعاقب من قتل نصرانيا أيام الحرب, ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى, ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم من أمور دينه, وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة, وبذلك أنتهى ملك المسلمين بالأندلس وصاروا رعية لصاحب قشتاله, ونزل سلطان غرناطة أبو عبد الله عنها.

وظل الأسبان يراعون الشروط مدة قليلة, حتى تمكنت قدمهم, وعلموا أن لا ناصر للمسلمين, فعدلوا عن مراعاة تلك الشروط, وأذاقوا من بقى منهم في تلك البلاد أنواع الاضطهاد, خصوصا لما تشكلت تلك المحكمة المعروفة بمحكمة التحرير أو القسيس أو (محكمة التفتيش) فكان من القسوة والمعاملة الخالية من المروة والإنسانية, ما لا يستطيع قلم الواصف أن يسطره, ولا ريشة المصور أن ترسمه, وقد كان إنشاء هذه المحاكم بأمر البابوات خلفاء المسيح وحفاظ دينه.

تعقد المحكمة في البلد ويؤتى إليها بالمسلم بعد المسلم؛ فإذا تنصر وتعمد وامتثل كل ما يقوله له هذا القاضى فقد نجا من العذاب، وإذا تمسك بدينه وأصر على الإسلام تفننوا في تعذيبه، بتقطيع

جسمه وهو حي، ثم بإشعال النار فيه، أو بكيه بحديد يقرب من درجة الصهر، على أنهم غير مقيدين بحكم، بل لهم أن يحكموا بما يرونه أشد في التعذيب وأدعى إلى النصرانية، ولقد كان الواحد منهم يقدح قريحته لاستنباط طريقة أنكى في التعذيب وأشد.

يفعلون كل هذا جهارا أمام الذين سيحاكمون، حتى إذا كان فيهم ضعيف الإيمان مزعزع العقيدة خلع الإسلام وتنصر.

فكان من ذلك أن هرب المسلمون بأنفسهم ودينهم وتبقى منهم المضطر في عذاب، وهو متمسك بالإسلام ولم يترك دينه رغم هذه المخترعات في ضروب التعذيب، حتى لم يمض غير قليل من الزمن ولم يبق في الأندلس مسلم يجاهر بدينه أو يستطيع أن يصلي لربه علنا، فانقرض أثرهم وتفرقوا.

هكذا فعل ورثة المسيح:

هكذا فعل ورثة المسيح الداعي إلى الأخوة والرحمة، والذي قدم نفسه فداء لخطيئة البشر – كما يقولون – إننا لو راجعنا الأناجيل الأربعة وهي كتب العهد الجديد_ على ما فيها _لم نجد فيها إلا هدوءا وسلاما وطمأنينة، فهل كان هؤلاء القسس محقين في شيء من هذا ؟ وهل في عملهم هذا شيء من الديانة المسيحية أو الإنسانية ؟ هم فعلوا هذا وأكثر منه ولم يقولوا إنهم متعصبون، ولكن نحن إذا تعصبنا للحق والدين وسرنا على نصوص قرآننا وسنة نبينا قالوا: هؤلاء متعصبون يكرهون الأجانب، وجامدون على القديم لا يأخذون بأسباب الحضارة.

وهل التعصب إلا رابطة شديدة بين المسلمين، وحبل متين إذا شده أحد تحركت سائر أجزائه؟.

وهل في تاريخ الفتوحات الإسلامية وعظمتها شيء يقرب من هذا ؟ والإسلام أنشيء على دول نصرانية، ولكن كان يؤمنهم على دينهم وحياتهم وعاداتهم ويبر بوعده، وهل إذا تمثلت تلك الصورة الفظيعة التي مثلها الأسبان تجد لها مثيلا في أي فتح إسلامي ؟..

فمن الوحش والهمجي منا ؟؟ لنترك الجواب للحوادث والأعمال، فهي التي يؤخذ منها الجواب، لأن كلا منا متهم في إجابته، ومن الوحش فينا على التخريج المنطقي ؟ وهل إذا وضعنا أعمالنا وأعمالهم في معادلة جبرية، فلمن تكون نتيجة الشراهة والوحشية بأجلى مظاهرها ؟ ألا ينكر علينا بعد هذا إذا دعونا للتعصب للحق بكل ما فينا من قوة وعزيمة ؟.

وسكان الإقيانوسية أصبحت أمريكا وهي تقدر بالقارات الثلاث وكل سكانها من بني الأصفر، وأصبحت أسبانيا « الأندلس » وكان المسلمون بها يقدرون بالملايين من العرب ليس فيها عربي ولا مسلم، وأصبحت جزر البحر الأبيض المتوسط التي كان أكثر سكانها العرب، ليس فيها عربي مسلم، هذه هي المدنية التي يدعونها مؤسسة على الرحمة وعلى انتشار الخير لبني الإنسان ! اللهم رحماك بعبادك !.

حضارة الإسلام ومدنيته:

أما حضارة الإسلام ومدنيته، فقد مضى على الإسلام بضع عشر قرنا والمسلمون منتشرون في أقطار الأرض، وقد مكن الله لهم في الأرض بالحق، وجعل لهم الطول والحول، حتى بلغ من سلطانهم أنهم لو أرادوا محق كل من يدين بغير الإسلام لفعلوا،ومع ذلك فإن روح الإسلام العليا سرت في قلوب الأمراء والفقراء، فجملتهم بواسع الرحمة والرأفة وحسن المعاملة ورعاية الذمة، حتى كان جار رسول الله ﷺ يهوديا، فكان يسأل عنه في كل يوم ويحمل إليه الطعام، وهكذا اقتدى بجناب رسول الله ﷺ الخلفاء الراشدون من بعده وأئمة الهدى، فعاملوا أهل الذمة من اليهود والنصارى معاملتهم للمسلمين، ولولا أن هذا المختصر لا يسع شرح ذلك لأوردت نماذج من جمال تلك المعاملات والمحاسن، الدالة على حقيقة الروح الإسلامية.

وأقرب شاهد للحس عدم تمكين خليفة بني عثمان من قهر جيرانه على الإسلام أو إجلائهم أو قتلهم، ولما كان الخليفة لا يحدث حدثا إلا بعد العلم بأنه من السنة والكتاب، فقد استفتى صاحب التفسير الشهير الشيخ أبا السعود في إجلائهم أو قهرهم على الإسلام، فأبى عليه وحرم عليه ذلك، لأن القرآن الحكيم أنزله الله سبحانه الذي خلق الخلق وفطرهم على فطر مختلفة، ووسعتهم رحمته سبحانه وتعالى.

ومن سعة رحمته تقدست ذاته أنه أمر بالرحمة عباده الذين استخلفهم في أرضه، مكن لهم فيها بالحق ليظهروا أسرار رأفته ورحمته سبحانه، وكرمه الذي شمل به عباده وليكونوا حججا له سبحانه يوم القيامة على خلقه بما شملهم به_ تنزهت ذاته _ من حقيقة الحنان والشفقة والفضل العظيم والكرم، وما واجههم به سبحانه وتعالى من جمال تنزلاته العلية، من تسخير ما في السماوات والأرض جميعا منه لهم، فضلا منه وكرما.

فكان المسلمون المتعصبون للإسلام، نعمة الله على جميع المجتمع الإنساني، بل وعلى كل موجود تحت السماء، بل وعلى كل سكان السموات السبع، فإن العمل بأحكام الله تعالى والقيام بما يوجب مرضاته سبحانه وتعالى، مقتضى لفيض واسع الرحمة،وتنزله سبحانه وتعالى بجماله المقدس وتجليه سبحانه بمعاني صفات جماله، نعمة كبرى للملائكة المقربين، لأنهم يتنعمون بمشاهد تنزلات الجميل الجميلة، فكأن قوة المسلمين في دينهم، وإظهارهم على عدوهم، وتمكينهم في الأرض بالحق، برهان على رضاء الله عن المجتمع الإنساني، ونظره سبحانه وتعالى إليهم بأعين العواطف الربانية، والإحسانات الرحمانية.

ولا يشك عاقل أن التعصب للحق والقوة فيه، والقيام بواسع الجهد في تنفيذ أحكامه وإقامة حدوده، وقهر كل من خالفه على الخضوع له والعمل بمقتضاه، هو الخير الحقيقي والسعادة، مهما اختلفت الأهواء وتفاوتت الآراء، وعميت بصائر المفسدين، وزلت أقدام أهل الطمع والغرور.

وليس الحق _ الذي هو الحق في نفس الأمر _ ما يضعه أهل الأهواء وما يتأوله أهل الفساد لنيل غاياتهم التي يدعو إليها الحظ والهوى، وإنما الحق _ الذي هو الحق في نفس الأمر _ ما أنزله الله تعالى، وأقام الحجج الناصعة عليه للعقول حتى أسلمت له وسلمت، وآمنت به القلوب وصدقت، وانشرحت له الصدور، وإليه النفوس الزكية سارعت، وهو القرآن المجيد وبيان رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّ تُصْرَفُونَ﴾ [1].

ميل النفوس اللقسة إلى الباطل:

كثيرا ما يكون للباطل زينة، فتميل إليه النفوس اللقسة (أي: الضعيفة) التي لا تستقيم على وجه غرورا بزينته العاجلة، التي من ورائها العذاب الأليم، والعاقل لا يغتر بلذة عاجلة تعقبها آلام أبدية، ولكنه يتألم ليفوز باللذة الدائمة، ويدأب ليحظى بالسعادة الأبدية، وقد رفع الستار عن مقاصد المبطلين ونوايا المفسدين، الذين يريدون سلب النعمة والخير، بإيهام أنهم يدعون إلى الخير، وهم – والله يشهد– أعداء الخير لأنفسهم، فكيف يحبونه لغيرهم؟!.

(1) سورة يونس آية32

دعتهم نفوسهم الخبيثة إلى أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويبدلوا بمحاسن الحق قبائح الضلال، أملا أن ينالوا السلطان في الأرض، وتفكيك عرى المجتمع الإسلامي، ومحو أنواره من القلوب، فلم يجدوا سلاحا أقوى من أن يوهموا الناس أن التعصب للدين رذيلة وجمود، ويقبح بأهل الحضارة والمدنية أن يتشبهوا بالوحوش، حتى إذا انفصمت عرى الغيرة على الدين، تفككت أعضاء المجتمع، وأحب كل فرد ذاته، وسعى لخير نفسه، فتمكن أعداء الله منهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، والله سبحانه وتعالى غالب على أمره، قال الله تعالى : ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُود وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ۞وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ۞يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء﴾ (1)

وقد كان العلماء يحذرون الناس عاقبة الاسترسال في تقليد أعدائهم، وتحسين أعمالهم، وسوء عاقبة التهاون بالدين، عندما هجم وحوش بني الأصفر على الإسلام والمسلمين بخدعهم، وتزيينهم الأباطيل، وسعيهم بالفساد في الأرض ؛ إذ ساعد على ذلك ظلم أمراء السوء، وميلهم إلى شهواتهم الفانية، وتقليد أهل الغرة بالله للأمراء،وإعانتهم على أهوائهم بالباطل، وتحسين القبائح لهم، ورغبة أهل الشهوات في المظاهرة بعمل ما يغضب الله تعالى، فحسنوا ما عليه بنو الأصفر، وتركوا محاسن عوائدهم الإسلامية، وجميل صنائعهم الشرقية، وصار كل قبيح دينا وعقلا مستحسنا إذا عمله الإفرنج، وأقبلوا على تقليدهم سرا وعلنا، في الملبس والمأكل والفراش، بل في كل لوازم المعيشة، حتى صار أفقر رجل من المسلمين يبذل كل ربحه ليجمل نفسه وبيته وأهله وأولاده بما يرد من بلادهم، فتعطلت الصناعات الإسلامية، وبتعطيلها هلك من كان قائما بها، ووقفت حركة الأفكار وقوة الاختراع حتى صار المجتمع الإسلامي أعزلا من الفنون والصنائع، إلا ما لابد أن يتولاه جاهل، خامد الفكر، من الأعمال البدنية، والمهن الدنيئة التي يتولاها صغار الأفكار، أقوياء الأبدان، فكان ذلك قوة للأعداء, وسلاحا لهم في قهر المسلمين وإذلالهم.

---

(1) سورة المائدة آية 51- 54.

وقد مضت القرون الطويلة وبلاد الإفرنج أقل انحطاطا من مجهولات أفريقيا وهنود أمريكا, حتى أشرقت في بلادهم أنوار المدينة الإسلامية, فأيقظتهم من نومة الغفلة, فكانوا كمن ربى الضرغام ليجعله بازًا لصيده, أو من ربى عدوه ومكنه من سلاحه, ووقف أمامه أعزل, وذكره بعد بعداوته, وأشهده كنوزه ونعمه, فاغتاله ليتنعم بما له من النعم والخيرات.

هكذا كان العلماء فيما سبق, قاموا بما وجب عليهم, ولكن زهرة الدنيا وأباطيل الأعداء وغرور أهل الفساد وقف أمامهم فسفه أحلامهم, وأقام عليهم أدلة باطلة, وقال : أنتم في جمود, أو : أنتم جهلاء بواجب المدنية الحديثة, فقال العلماء : اللهم إنا قمنا بما أوجبت علينا, ولا حول ولا قوة إلا بالله, فاسترسل المسلمون في الغواية, فالتفت الله بوجهه الجميل عنهم ولم ينظر إليهم, فأصبحوا رعية بعد أن كانوا رعاة, وأذلاء بعد أن كانت لهم العزة, ضعفوا بعد القوة, تفرقوا بعد الاجتماع, وصاروا يؤكلون ولا يأكلون, ويؤخذون ولا يأخذون, يسمعون ويطيعون لغير حكم الله ورسوله, ويدارون ولا يدارون, بعد القوة والمنعة والعزة والسلطان, حتى بدت لهم البغضاء ممن اقتدوا بهم, وبان لهم خطأ انحرافهم عن دينهم مجسما, والخطل في جعل أعدائهم أئمة هديهم, وبالجملة صبت عليهم أنواع المصائب, وضيق عليهم الخناق, واستعبدوا أيما استعباد, فكان ذلك أقوى من تذكير العلماء ووعظ الحكماء.

وآن للعالم أن ينتهز تلك الفرصة والقلوب واعية, والآذان صاغية, فيذكرهم بما به يجتمعون بعد التفرقة, ويتآلفون بعد العداوة, لينظر الله تعالى إلينا جميعا ويواجهنا بوجهه الكريم, والذكرى تنفع المؤمنين, ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين, وتلك سنة الله التي قد خلت في عباده, قال الله تعالى : ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [1] وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[2], وقال سبحانه وتعالى :﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾[3], وقال ﷻ : ﴿إِن تَنصُرُوا اللّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [4]

(1) سورة البقرة آية 153
(2) سورة القصص آية 5.
(3) سورة الإسراء آية 7.
(4) سورة محمد آية 7.

وقد بينت الواجب للمؤمن وعليه مفصلا في كتاب : (النور المبين) أسأل الله أن ينظر إلينا نظرة يهب لنا بها العزة التي وعد بها المؤمنين في قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] وأجلى عنا أعداءنا مخذولين بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [2].

فإذا قرأت ياأخي الواجب عليك ولك في كتاب : (النور المبين) ثم طالعت تفصيل ما أجمل فيه في كتابي : (أصول الوصول) و: (معارج المقربين) وغيرهما مما فصلت فيها لإخوتي المؤمنين ما لا غنى لهم عنه من فروع الدين وأصوله, كنا ممن بشرهم الله تعالى وأثنى عليهم بقوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [3].

رابعا : نيل السعادة الأبدية

تقدم لنا أن التعصب للدين, يبتديء بأن يتعصب المؤمن على نفسه وهواه لله ورسوله, حتى تكون أنفاسه وحركاته وسكناته خالصة لله, في كل عمل يعمله يكون على السنة, ليبلغ مقاما يفنى مراده في مراد الله, وحظه وهواه في مراضاة الله, فيغضب لله, ويرضى لله, ويعامل لله, ويجالس لله, ويفرح لله، ويحزن لله, بل لا يأكل ويشرب وينام ويتجمل ويتطهر ويتطيب ويتزكى ويدخر الأموال ويتزوج ويشيد المنازل إلا لله, فيكون عاملا من عمال الله, وفردا من الأفراد الممثلين لحضرة رسول الله ﴿ﷺ﴾, أخلاقه أخلاق رسول الله ﴿ﷺ﴾, لسانه ذاكر, وقلبه فاكر, ينظر نظرة عبرة, وينطق بالحكمة, ويسعى للخير, فيكون مع الله, والله سبحانه وتعالى معه.

وهذا لا يشك مؤمن أن قلبه معلق بالملأ الأعلى, وجسمه بين الناس على الأرض, خيره لعباد الله واصل, ولا شر له, وهو الذي يتجمل الملكوت الأعلى بصور أعماله, وتطيب الملائكة الروحانيون بطيب أنفاسه, وتشتاق إليه الحور العين في مقصوراتها, ويستغفر له حملة العرش العظيم, ويباهي الله به الملائكة الكروبيين, وهو الذي جاهد في الله حق الجهاد, ملاحظا قوله تعالى : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ

(1) سورة المنافقون آية 8
(2) سورة النساء آية141
(3) سورة الزمر آية 17-18

جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُم ﴾ [1] وهذا هو الذي اشتاق إليه وإلى نظرائه رسول الله ﴿ﷺ﴾ بقوله صلوات الله عليه وآله : (واشوقاه لإخواني الذين لما يأتوا بعد) في الحديث الطويل بسند مالك بن أنس رضي الله عنه, وجعل ﴿ﷺ﴾ أجر الواحد منهم كأجر سبعين صديقا من أصحابه, صلوات الله عليه وعليهم أجمعين, وجعل ﴿ﷺ﴾ حكمة ذلك أن أصاحبه ﷺ يجدون على الحق نصيرا, وأن العلماء المتعصبين لدينهم في زماننا هذا لا يجدون على الحق نصيرا, والحديث مبسوط في الموطأ.

هذا نزر من كثير, لا يمكن شرحه لأهل العقول إلا بعد التسليم والتصديق والإيمان, لأن المؤمن ينظر بنور الإيمان, ما لا يمكن لغيره أن ينظره بنور العقل, وكثير من أهل الإيمان نظروا بنور إيمانهم أسرار آيات حجبت عن أنوار العقول الكبيرة, لأن العقل مخلوق, لا يمكنه أن يشهد أسرار الخالق إلا بفضل منه سبحانه, فإذا أهله للإيمان أهله لمشاهد القرآن : ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [2]

وإن من تفضل الله عليه بهذا الفضل العظيم في الدنيا, وأقامه مقام أنبيائه عليهم الصلاة والسلام, فهو ولا شك من الذين بشرهم الله تعالى بأنهم : ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[3] وبقوله تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[4] وهم المقربون من الله, المحببون له سبحانه وتعالى, وأولياؤه المخلصون.

أسأل الله تعالى أن يهب لى ولإخوتي المؤمنين جميعا حلاوة الإيمان ولذة التقوى, وأن يشرح صدرنا للعمل بكتابه العزيز, وبسنة نبيه ﴿ﷺ﴾, إنه مجيب الدعاء.

---

(1) سورة الحج آية 78
(2) سورة النور آية 40.
(3) سورة القمر آية 54- 55.
(4) سورة السجدة آية 17.

الباب الثالث
المجتمع الإسلامي
الفصل الأول
بناء المجتمع الإسلامي

الذكرى تنفع المؤمنين :

أبتديء في الذكرى بنفسي وبعشيرتي الأقربين, اقتداء برسول الله ﴿ﷺ﴾ وعملابسنته ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾.

الذكرى لنفسي :

أى نفسي : إن الحق وإن ثقل عليك تَحَمُّلِهِ, وصعب عليك العمل به, لما أنت مفطورة عليه من النزوع إلى ما يلائمك, والميل والمسارعة إلى ما تشتهين, فإن الحق يانفسي هنيء مريء, تفوزين به برضوان الله, وبالعزة به سبحانه في الدنيا وبنيل السيادة في الناس, وبمساعدة كل من يعرفك لك يانفسي, حتى تكونين كملك بين رعيته, أو كوالد بين أبنائه, كل ذلك إذا أطعتني يانفسي في العمل بالحق, ولم تتعاصي على الحق وإن ثقل عليك يانفسي عمله.

فلو تفكرت قليلا في نتائجه وفوائده لكان أخف عليك من النسيم العليل البليل, وأشهى إليك يانفسي من الماء البارد في اليوم الصائف في الصحراء بعد فقده, لأن الماء البارد في هذا الزمان والمكان يفيد فائدتين, الأولى حياة النفس, والثانية لذة الشارب, فكذلك العمل بالحق يانفسي يفيدك فائدتين, سعادتك في الدنيا, والنعيم الأبدي في الآخرة.

أي نفسي : ترغبين في لذة يعقبها ضياع الشرف بين الناس, والذكر الجميل, والدين والدنيا ؟ تطمعين يانفسي فيما لو نلتيه لا ينفعك, ولو تركتيه لا يضرك ؟ إن شبعت سارعت إلى معصية الله, وإن جعت يانفسي بادرت إلى مخالفة الله, فلا أنا منتفع بك في شبعك, لأنك تقرينني على عمل المعاصي فتقومين لطلب الجاه ولأذية الناس, ولا أنا منتفع بك في الجوع لأنك عند الجوع تقنطين من رحمة الله, وتحتالين في طلب قوتك من أي وجه من وجوه الحرام, وإما ببذل الحياء أو العرض أو الشرف, أو بالختل أو بالتلصص.

أي نفسي: إن كنت في شبعك تعصين الله, وفي جوعك تعصين الله, فأنت والله عدوتي وداعيتي إلى الهلاك الأبدي.

أي نفسي: إن أنعم الله عليك استعملت نعم الله في معاصيه, وأنفقت رزق الله في وجوه مخالفته, تتركين الحج وتحجين إلى بلاد الكفار, تتركين إخراج الزكاة وتتقربين إلى أهل السلطة بنفائس الأموال, يكون قريبي جائعا بجاري فلا أرحمه وخزائني مملوءة من نعمة الله, فأنفق الآلاف من الجنيهات تقربا إلى ذي سلطان ولو كان كافرا, لعلك يانفسي نسيت يوم الحساب أو تناسيته, أذكرك يانفسى يوم الحساب, ﴿يَوْمَ لَا يَنفَع ُمَالٌ وَلَا بَنُونَ۞إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1].

أجابتني نفسي: وكيف أكون عدوة لك, وأنا إنما أعمل لأجلك, متى عملت ما يضرك أو يؤلمك, أنا أجتهد أن أجعلك آنسا متلذذا فرحا.

أجبتها: يانفسي تظنين أن تلذذي بمجالس اللهو, ومداعبة أهل الخلاعة ومغازلة النساء, واعتدائي على الناس لأقهرهم, واشتفائي من الناس بتنقيصهم ومخاصمتهم, حتى أنتقم منهم لنفسي, وسعيي في زوال نعمة من أحدهم, وإذلالي لأقربائي, وقهري لجيراني, وخوف أهل البلد مني, وعنايتي بنظافة جسمي, وتحسين ملبسي, وتجميل بيتي بالفرش والأواني, والحدائق والأنوار, حتى أبالغ فأجعل للنعل ممسحة أحفظها, أمسحه بها كلما قدمت على قوم, حتى تكون ثيابي ووجهي ونعلي في غاية الجمال تستوجب التفات نظر الناس, واجتهادي في انتقاء أسرع الخيل للركوب ومشيي أتمايل كالعروس, وحرصي على الأموال والاجتهاد في تنميتها من غير أن أستعملها في النفع العام, وتظنين أيضا يانفسي أن طيب المأكل والمشرب, وثنائي بلساني على نفسي, وافتخاري بما لم أعمل, تظنين يانفسي كل ذلك هو الخير الحقيقي والسعادة الحقيقية ؟

أجابت نفسى : نعم, أي لذة بعد هذا ؟

أجبتها : ياينفسي كل هذا ملاذ لأدني مراتب البهائم, وربما كان البهيم أكمل لذة منك يانفسي فيما تظنينه لذة, أنصحك أن تقرئي بهجة النفوس في كتاب : (اصطلاح أهل الطريق) وأن تذاكري

(1) سورة الشعراء آية 88- 89.

موضوع الإنسان في كتاب : (النور المبين), والواجب عليك يانفسي قبل أن يأتي اليوم الذي لا يتسنى لي أن أحصل كمالاتك.

يانفسي : أنا لا أقول لك أترك الأكل والشرب, وملامسة النساء, ونظافة الجسم, والثياب والفرش, وانتقاء الهواء الجيد للسكنى, والتجمل بنعمة الله تعالى إظهارًا لفضله العظيم, ولكن أقول لك يانفسي : كل تلك الأشياء ليست مقاصد ولكنها وسائل لمقصد أعظم, وهو شكر الله تعالى على نعماه, واستعمال نعمته في الوجوه التى ترضيه عني يانفسي, والمسارعة إلى نيل الكمالات التي تكونين بها يانفسي صورة ربانية, سخر الله لها ما في السموات وما في الأرض جميعا منه, ولا أحب يانفسي أن تكوني بهيما بترك فضائل الإنسانية, وانغماسك في الشهوات البهيمية, فإنك بذلك تكونين خنزيرا يحب النكاح, أو ديكا أو كلبا يأكل الجيف, أو ثعلبا يخدع الناس, أو طاووسا نظيف الظاهر, فتكون صورتك صورة إنسان, وحقيقتك حقيقة بهيم, وأعوذ بالله ممن يخلقه الله في أحسن تقويم, ثم يرده في أسفل سافلين, فتكون صورته صورة إنسان, وأعماله أعمال الشيطان أو البهيم.

يانفسي: أركان الإسلام حصون الأمان وحلل الجمال, وروح تحيا بها النفوس, فحافظي على أركان الإسلام, وقد بينت لك يانفسى ما يجب عليك في كتاب : (النور المبين) وبينت لك أمراضك وعلاجك في كتاب : (معارج المقربين), وبينت لك مناهج الحق في كتابي : (أصول الوصول), و: (شراب الأرواح), فاتركي يانفسي لذة فانية, تنتج عذابا باقيا, والله يوفقك يانفسي لما به نيل سعادتي وسلامتي من شرك, فإنك أعدى عدوي, وأضر عليّ من إبليس, أعانني الله على جهادك الأكبرحتى تسلمي معي لله رب العالمين, وتنيبي معي إلى الله سبحانه وتعالى, إنه مجيب الدعاء.

مذاكرة للأقربين :

أي إخوتي وأبنائي وأرحامي : إني يسرني سروركم, ويحزنني حزنكم, أجد في نفسهذا الوجد بمجرد العلم بداعي كل نوع, قبل شهود مسببه, فكيف بشهود ذلك ؟!

ما ذلك إلا لأن الروح السارية في تلك الأجسام المختلفة هي متصلة وإن تباعدت الأجسام, والاتصال الروحاني لا يستلزم اتصال الأشباح. مثال ذلك ما يراه الإنسان في نومه بأخيه, فيحصل ما يراه من الخيرات وغيرها, وارتسام الصورة في المرآة من غير اتصال جسم المرآة بجسم المصور, فكأني أنا وأنتم – وإن تعددت الأجسام –كنفس واحدة, يتألم أحدنا بألم الآخر, ويفرح بفرحه, فأنا ي إخواني

يسرني ويفرحني أن تكونوا مجملين بالعافية, فائزين بنيل الخير الحقيقي, الذي به يدوم لي بكم الفرح والهناء فى الدنيا والآخرة, وطريق هذا الخير الحقيقي محصور فيما أمر الله تعالى به رسوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وقد قررت لكم ذلك في كتاب : (النور المبين), عند قولي : بالإسلام نيل السعادتين, فكونوا على ثقة ياإخوتي وأولادي وعشيرتي, أن كل لذة ينالها المرء بمعصية الله هي عذاب أليم في الدنيا والآخرة, وكل حظ يناله الإنسان بمعصية الله هو شقاء فالدنيا والآخرة, وليست لذة تفنى وتوجب العذاب الأليم بلذة يتلذذ بها إنسان عاقل, وكيف يكون ذلك من إنسان يعتقد أنه مسئول أمام الله عن كل صغيرة وكبيرة ؟!.

ثقوا ياإخوتي بمعونة الله ما دمتم محافظين على سنن رسول الله ﴿ﷺ﴾ وبوسعة أرزاقكم, وبالعزة من الله لكم, وبالغنى عن شرار الخلق, وبالتمكين في الأرض بالحق, ما دمتم تعملون بكتاب الله, وتجاهدون أنفسكم في ذات الله, بل أبشروا برضوان الله الأكبر, وبالنعيم الأبدي في الفرودس الأعلى, لأنكم ياإخواني باتباعكم للسنة وعملكم بالكتاب, تكونون أشبه بأصحاب رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ قال الله تعالى :﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَاللَّهَ كَثِيرًا﴾ [1] ومتى أشبهتم أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾, كنتم من أهل معية رسول الله ﴿ﷺ﴾ ونحن في القرن الرابع عشر من هجرته عليه الصلاة والسلام, بل ويجملكم الله تعالى بالصفات التي اشتاق إليها رسول الله ﴿ﷺ﴾ بقوله في الحديث الطويل برواية الإمام مالك بن أنس ﷺ : « واشوقاه لإخواني.....»

ياأولادي : احفظوا الله يحفظكم, احفظوا الله تجدوه أمامكم, كونوا مع الله تروا الله معكم, ياأبنائي : يقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾[2] فابغضوا المعاصي ياأبنائي, لأن الله حرمها, وتوعد عليها بالنار, ولأن المعاصي في ذاتها تنفر منها النفوس الكريمة, ولأنها تهدم مجدا أسسه أئمة الهدى من آبائنا العلماء العاملين, ولأن المعصية تذهب وجاهة الإنسان, ومنزلته العالية بين الناس, وتجعله محتقرا ذليلا, ولأن المعصية تسبب العداوة بين الناس والخصومات, وتسبب الأمراض في الأبدان, وإن المعصية توجب الخزي

(1) سورة الأحزاب آية 21.
(2) سورة الطور آية 21.

والندم في الدنيا, والعقوبة يوم القيامة, فاتركوا ياأولادى المعصية, فإن لذة تؤدي إلى كل تلك البلايا الأولى الفرار منها, ولو كان في تركها آلام عاجلة.

يا أبنائي : صلة الأرحام تطيل الأعمار, وترضي الرحمن, وتكثر الأنصار, وتجعل الرجل سيدا عظيما في عشيرته, وهي من صفات رسول الله ﴿ﷺ﴾ وصلة الرحم صلة للرحيم, هذا فضلا عما يشعر به المرء المسلم من الشفقة والرحمة والعاطفة على أقاربه, فلو لم تكن صلة الرحم شرعا وعقلا, لكانت فطرة وسجية, وقاطع الرحم كأنه يقول : أنا لست إنسانا ولكني وحش, لأن الإنسان – ولو كان ابن زنا – يعطف على أبناء أمه وأقاربها ويتعصب لها.

ياأبنائي : أكرموا جيرانكم يدم لكم الصفاء والهناء وتزيد نعمكم, لأن إكرام الجار يرضي الله تعالى, ويرضي رسول الله ﴿ﷺ﴾ ويجعل لك جارك خادما يطيعك, يلبيك إن ناديته, ويسرك إن قابلته, فإن أنت لم تكرمه كان كالهم الملازم والغريم المطالب, ولا غنى لك عنه, والعاقل لا يجعل له سبعا وحشا مفترسا مطلقا من القيود قريبا من بابه, وإن عجزت عن إكرامه وتأليفه فتب إلى الله واسأله المعونة, وافرض أن جارك بعيدا عنك فلا تذكره إلا بخير, وانس إساءته يهده الله, أو يرحك منه, ياأبنائي احترسوا من الناس بسوء الظن, ولا تظهروا سوء الظن لعباد الله, ولكن عليكم بمداراتهم, فحسنوا نواياكم في قلوبكم, وصونوا أعراضكم في بيوتكم, وأموالكم فخزنكم, حتى إذا ظفرتم بواحد من أهل الأسرار فجربوه واختبروه, ثم كاشفوه بقدر معلوم وأنتم على حيطة منه, فإذا وجدتم رجلا أمينا يمكنه أن يحفظ مالكم ويعمل فيه لينتفع وتنتفعوا, فأعطوه بقدر معلوم, مع الحيطة منه.

أما الأعراض ياأبنائي فإن الله تعالى حكم فيها فقال تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [1] ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ﴾ [2] الآية, والعمل بكتاب الله به الفوز برضوان الله, وبه السعادة في الدنيا والآخرة, والجاهل عدو نفسه, فكيف يكون صديقا لغيره ؟!

(1) سورة النور آية 30.
(2) سورة النور 31.

تعلموا ياأبنائي العلم تكن لكم الدنيا والآخرة, فإن كان آباؤكم من أئمة الهدى حفظتم ذكرهم, وأبقيتم صورهم مرسومة على صفحات القلوب وإن كانت أعيانهم في القبور, وحفظتم تراب آبائكم ومجدهم, وصرتم كالجوهرة النفيسة المستخرجة من كنوز أنفس الجواهر, يعظمكم الناس لنسبكم, ويجلونكم لعلمكم.

العلم ياأبنائي حقيقة صعب المرتقى, ولكنه كرسي من جلس عليه ساد في الدنيا, وكان في مقعد صدق عند مليك مقتدر يوم القيامة, أوصيكم ياأبنائي بأن يحب كل واحد منكم لأخيه ما يحبه لنفسه, وخيركم من بدأ بأخيه فيما يحب ثم بنفسه, قال الله تعالى مثنيا على أصحاب رسول الله ﷺ وليست بينهم أرحام يتواصلون بها, وإنما هي أخوة الإسلام : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (1)

فيجب عليكم ياأبنائي أن تتشبهوا بالكرام قياما بأخوة الإسلام, وأخوة الأرحام, ياأبنائي أعطوا حب قلوبكم للأخ التقي الأمين الموالي, واجعلوا مزيده بالدعاء الصالح والبشاشة في وجهه والمسارعة إلى خيره, وأعطوا طلاقة الوجه وحلاوة اللفظ لمن تخشون شره, أو تخافون جهالته ليكفيكم الله شروره, فسعوا الناس كلهم بأخلاقكم حتى يكونوا لكم ألسنة خير.

ياأبنائي : المؤمن عظيم معظم عند الناس ما لم يعمل معصية, فإن وقع في معصيةخفية أغضب الله عليه, وأعوذ بالله ياأولادي من غضب الله, ومن اختفى من الناس ليعمل معصية كان من المنافقين, لأنه من أقبح صفات المنافقين قال الله تعالى : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ (2) ومن عمل معصية أمام الناس, وأثار عليه لئام الناس, فيذل بعد العز, ويستوجب غضب الله وسخط الناس.

فيا أبنائي أعاذكم الله من المعصية, إذا دعتكم النفس الخبيثة إلى ما يغضب الله, فضعوا قدر لذتكم في كفة الميزان, وغضب الله وسخط الناس والعذاب يوم القيامة في الكفة الثانية, ثم اختاروا لأنفسكم.

---

(1) سورة الحشر آية 9
(2) سورة النساء 108

أنا على يقين أن ابنى الذي آمن بيوم الحساب, وصدق القرآن وأحب أن يشابه والده, يغضب إذا خطرت المعصية على قلبه, فضلا عن أن يهم بها, أسأل الله أن يعيذني وذريتي وأهلي من الشيطان الرجيم, ويجعلني ممن قال الله تعالى فيهم : ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾[1] وقال تعالى فيهم : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [2]

اعتقدوا ياأبنائي أن أبناء الصالحين, وأولاد العلماء, تكون الصغيرة منهم كبيرة, والكبيرة منهم كفر, لأنهم محل نظر العامة, فقد يقتدي بهم الجهلاء, لاعتقادهم أنهم أبناء الصالحين, ولو كانوا على معصية, وتنكر عليهم العلماء, فيكونوا بلاء على الجاهلين لاقتدائهم بهم في معصية الله, وبلاء على العلماء لاشتغالهم بالرد عليهم والإنكار, وذلك كله لأنهم أبناء الصالحين, ومن لم يشبه أباه ظلم أمه ورماها بالزنا, ووصم نفسه بأنه ابن زنا, أعيذكم بالله ياأبنائي من الشيطان الرجيم, وأعيذ ذريتكم من الشيطان الرجيم.

احفظوا ياأبنائي أرحامكم, وصلوهم وإن قطعوكم, وأحسنوا إليهم وإن أساءوا إليكم, فإن الصلة واجبه عليكم بحكم الله وبسنة رسول الله لأنهم أرحامكم, لا لأنهم أحسنوا إليكم, فهم وإن أساءوا لا تسقط حقوقهم عنكم, لأنكم ياأبنائى لو أنكم قطعتم أرحامكم بسبب إساءتهم إليكم تكونون حكمتم بغير ما أنزل الله : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [3].

صلوا أرحامكم صلة لله ورسوله, فإن الذي لا يصل من أرحامه إلا من أحسن إليه ليس بواصل, ولكنه مكافيء, وإنما الواصل لرحمه بل والقائم بما فرضه الله عليه من وصل أرحامه لله تعالى ولو قطعوه, وأحسن إليهم وإن أساءوا إليه, غير ناظر إلىعملهم, فإن نظر إلى عملهم وحكم عليهم بما حكموا به عليه, كان من الأخسرين أعمالا.

---

(1) سورة الزخرف آية 70
(2) سورة الطور آية 21
(3) سورة المائدة آية 45.

يأبنائي : إن النبي ﴿ﷺ﴾ رغبنا في الإحسان إلى من أساء إلينا من الأباعد, وفي صلةمن قطعنا منهم, وفي إكرام جارنا الغريب ولو أهاننا, وجعل ذلك من مقامات الإحسان, وجعل من فعل ذلك من أعبد الناس, فكيف يكون الحال في الجارالقريب ؟

يأبنائي: كل من تشبه بقوم أُلحق بهم, وصار منهم أو معهم, فاقرأوا يأبنائي سيرأئمة الهدى, وذاكروا طرائق المتقين, وجاهدوا أنفسكم أن تتشبهوا بهم تمام التشبه. يأبنائي: إذا نزعت الرحمة من قلب مسلم لأقاربه, هل تكون في قلبه رحمة لأجنبي ؟

يأبنائي: إن من نزع الله الرحمة من قلبه, إنه لشقي.

يأبنائي : إن الرجل تكون له الزوجة, والزوجة تبغض أقارب الرجل لأنهم يشاركونها في نعمته, وهم يبغضونها لأنها استقلت بنعمة قريبهم وتصرفت في ماله, إلامن حفظ الله, والمرأة ألصق بقلب الرجل, فقد تخلو المرأة بالرجل وترميهم بالبهتان, فيقوم الرجل فيقطع أرحامه, ويحارب أقاربه ويؤذي من أمره الله بالإحسان إليهم, فتكون المرأة في مثل هذا أشر من الشيطان وأضر من النار, وإذا كان الرجل لشهواته البهيمية يقدم المرأة الأجنبية على أرحام له أمر الله بصلتهم, يكون كالبهيم بل أقل.

يأبنائي : اتقوا الله في جيرانكم, غضوا أبصاركم عن عوراتهم, شاركوهم فيماأنعم الله عليكم فإنهم يبصرون ويسمعون, فاستديموا نعم الله عليكم بقليل تبذلونه لهم من نعمة الله عليكم, يكون لكم مزيدا في الدنيا, ورضوانا من الله في الآخرة.

لا تجعل جارك يرى شيئا في بيتك إلا وتشاركه فيه, وإذا بلغ بك الحرص مبلغا جعلك تكره أن تشارك جارك فيما أنعم الله به عليك, فاخف ذلك عن جارك وعن أبنائه, فإن الجار كالقريب يطمع في جاره, ويرجو منه ما لا يرجوه من غيره, حتى إذا شم جارك دخان قدرك فأعطه منه.

اعلموا يأبنائي أن نظرة إلى زوجة الجار أو بنته بشهوة عمدا من الكبائر التي توبق, لأن له حقوقا كحقوق القرابة, وكشف ستر الله عن الجار من الموبقات, فاتقوا الله في جيرانكم, فإن لهم عليكم حقوقا, التساهل في حق منها موجب لغضب الله تعالى, وقد أمرنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن نقوم بحقوقهم, ثم نتفضل عليهم.

أبنائي : إياكم أن يحب أحدكم نفسه فيطمع في قليل يفنى, ويحرم كثيرا يدوم, فإن أحدكم إذا أحب نفسه فطمع في الدنيا ونافس فيها إخوته, يفتح على نفسه أبواب شر : الأول : بغض أقاربه الذين أولى الناس به, ومتى كره أقاربه قرب أهل الجهالة من شياطين الإنس الذين يعينون على قطيعة الأرحام, وأحبهم واستعملهم في إساءةأقاربه, فينفق ماله في غضب الله على شياطين الإنس, وفي إساءة أقاربه.

الثاني : يبغضه عقلاء الناس, لأنه بمعاداته لأقاربه يعتقدون فيه الجاهلية ومخالفة السنة ومعصية الله, ويئسون منه, لأنه يصير عندهم لا خير فيه.

الثالث : يفرق الجماعة, فإن كل واحد من أقاربه له شيعة يشايعونه, وأحباب ينصرونه, فإذا أحب الرجل نفسه ابتلى بعداوة تلك الشيع المختلفة, فكثر همه وقلت راحته, واشتغل عن الله واشتدت الخصومة عليه, فبذل ما في يده من المال في خلاص نفسه، وأذية أقاربه، فكان حبه لنفسه سببا في زوال النعمة، وفقدان اللذة، وحرمان الراحة.

فيأأبنائي: الأخ خير من مال كثير، وإيثار الأخ على المال سبب السعادة الكبرى والخير الحقيقي، لأنك إذا آثرت أخاك على نفسك بالمال، أو بالرياسة، أو بالجاه، صيرت أخاك لك كمملوك لك مطيع، وصرت عزيزا عظيما، كثير المال، عظيم الجاه، منشرح الصدر، آمنا على نفسك.

يأأبنائي : الجاهل حقا من يبغض أخاه لأجل المال أو الجاه، وأجهل منه من يسعى في أذية أخيه لينال مالا أو جاها، ومن عمل ذلك لأضاع الجاه والمال من نفسه ومن أخيه، وأنت ياولدى إذا كان لك أخ غنى وذو جاه فأنت الغني ذو الجاه، فإن مال أخيك مالك، وجاه أخيك جاهك، والواجب عليك أن تسارع في زيادة مال أخيك وتأييد جاهه، فإنك شريكه في كل شيء، إلا إذا عاداك لشيطان الهوى والحظ، لعمل لا تحسن عاقبته.

أعوذ بالله من طمع يزيل الخير، ومن حسد يوقع في جهنم، وإني — والله – ليسرني أن يكون جارى الغريب في نعمة وسيادة، فإني أكون في نعمة وسيادة، ما دام جارى سيدا منعما عليه، فكيف بأخي أو عمي أو خالي أو ابن أخ أو أحد أقاربي أو ابني أو ابن عمي ؟!.

يأأبنائى: الله أعلم حيث يجعل نعمته، كما أنه أعلم حيث يجعل رسالته، قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [1] فإذا أنعم الله على واحد منكم بنعمة، وسعة في رزقه، أو سيادة في قومه، أو حكمة، أو جمع له تلك النعم، فاعتقدوا أن ذلك فضل من الله عليكم جميعا،واجتهدوا جميعا أن تعظموا من أنعم الله عليه وأن تعضدوه، فإن ذلك يكون تعظيما لله، ومزيد فضل لكم جميعا.

وعلى من أنعم الله عليه أن يعتقد أنه إنما أقامه الله مقام كل أفراد العائلة، ورزقهم جميعا في ذاته، فعليه أن يجعل نفسه كواحد من أفراد العائلة، يحب لصغيرهم ما يحبه لنفسه، ويحب لكبيرهم ما يحبه لنفسه، حتى يكون خادما لهم، شكرا لله على نعمته عليه, فيكون بذلك في نعمة الله ومزيدمن فضله العظيم, ومزيد من حبه له سبحانه ومواجهاته سبحانه الربانية, فتكون النعمة عليه معراجا للقرب من حضرة القدس الأعلى, ويكرم الله أولاده بعده إكراما له, قال الله تعالى : ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[2]

فانظر يابني كيف أكرم الله الأبناء إكراما لوالدهم, فأرسل لهم رسولا من أولي العزم ونبيا أو وليا من كمل الأولياء يرفعان الجدار, فاحرص ياولدي أن تنال إكرام الله في حياتك, وإكرام الله لأولادك بعد مماتك إكراما لك.

ياولدي : ورث أبناءك أخلاقك المحمدية, وعقيدتك الحقة, ومعاملتك الجميلة, وعبادتك لله الصحيحة التي تشكر بها ربك سبحانه, ورثهم الرحمة على الأرحام, والرأفة بالأيتام, والإحسان إلى الجيران, ورثهم حسن التوكل على الله والثقة بما في يدالله, وحسن الظن بالله, ورثهم الإحسان إلى من أساء إليهم, والعفو عمن ظلمهم, والصلة لمن قطعهم.

ياولدي : هذه وصيتي التي أسألك – بحقوق أبوتي عليك – أن تحافظ عليها, لتكون معى إن شاء الله تعالى يوم القيامة, إذا تفضل الله تعالى علينا بمغفرته وعفوه فدار النعيم.

---

(1) سورة يونس آية 107.
(2) سورة الكهف آية 82.

يابني : لا تغضب وإن أغضبك غيرك فإنك إذا غضبت جهلت من أنت, فإذاجهلت من أنت عملت أعمال الشياطين, وفعلت أفعال الخاسرين الهالكين, فإذا أغضبك غيرك ولم تغضب ودبرت بعقلك ورويتك, وجعلت الناس أنصاراً لك على من أغضبك, وكان الله تعالى معك لأنك تخلقت بخلق من أخلاقه سبحانه, لأنه سبحانه وتعالى حليم لا يعجل بالعقوبة على من عصاه, وصبور وغفور وتواب وعفو, ومن كان الله يابني معه هل تعلم نفس ما يتفضل به عليه سبحانه من الخير الحقيقي وما يمنحه سبحانه من الفضل العظيم ؟.

يابني : مداراة الناس بالفكر والتدبير والضمير لا باليد واللسان, وما ترك من الحماقة شيئا من قال لعدوه : إني أكرهك, أو : أنت عدوي, فإنه يسلط على نفسه شيطانا كان في حصون الحفظ منه لولا تلك الكلمة, ويقول الله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (1)

لا تحزن قلب زوجة لك ولا خادم ولا ولد ولا دابة, إلا في مقام أدب على ذنب موجب, وفي غير ذلك انصح نصيحة رحيم عطوف حكيم, والله تعالى يعينني وإياكم ياأقاربي وأولادي على ما به ننال رضاه الأكبر, من العقيدة والعبادة والعمل والحال والأخلاق, ويجعلنا من العاملين بالسنة والكتاب, والمجددين لمناهج رسول الله ﴿ﷺ﴾ وممن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

نتائج ما تقدم

تقرر بالبرهان أن الإسلام دين ووطن ونسب

النتيجة الأولى : الإسلام دين

حيث أن الإسلام دين يجب أن نعمل به عمل المؤمن الكامل التصديق, الذي يتيقن أن العمل به سعادة في الدنيا, وتخفيف عند الموت بالبشائر التي تتوالى على المسلم عند قبض روحه, وراحة في القبر بما تشهده النفس بعد مفارقة الجسم مما أعده لها ربها سبحانه وتعالى, وللجسم في النشأة الآخرة, ولا يخفى أن للنفس بعد مفارقتها للجسم في هذا الكون اتصالا نسبيا بالجسم, كاتصال الشمس وهي في السماء الرابعة بقاع البئر العميق وقت السمت (أى : عندما تكون الشمس في وسط السماء).

(1) سورة فصلت آية 34.

فكما أن الشمس ترتسم في الماء الذي في قاع البئر العميق وتؤثر وتنوره وتجعله منيرا, وتزيل منه العفونات والأبخرة الفاسدة, فكذلك النفس إذا كانت في عالم الملكوت اتصلت بالجسم فأكسبته إشراقا, وحفظه الله بهذا الإشراق في حصن منيع, كما ترى ذلك محسوسا فى الأماكن التي يدفن فيها أهل التقوى والصلاح من العلماء العاملين, الذين نفعوا العامة بعلومهم وعملهم, فإن الله يكرمهم فيجعل أماكن قبورهم محل تنزل رحمته, وعناية لعباده بزيارتهم, والاعتبار بهم, والتشبه بهم في أعمالهم, ونيل النعيم المقيم يوم القيامة, وذلك لأن العامل بأحكام الإسلام المحافظ على أركانه, وعده الله بالنعيم الأبدى, والفوز العظيم في دار رضوانه وبساتين فردوسه, فيكون المؤمن العامل بوصايا الإسلام وشرائعه سعيدا في الدنيا لما شرح الله صدره له من العمل في الدنيا لله تعالى, فيكون غنيا بالله عن شرار الخلق, فرحا مستبشرا عند الموت, مستريحا آمنا في قبره, منعما مجملا بأكمل المشتهيات وأشهى الملاذ يوم القيامة.

وتارك العمل بوصايا الإسلام ذليل في الدنيا, لأنه بتركه العمل بالقرآن والسنة صارعبدا لشهوته وحظه, وعبدا لغير الله في أسفل طبقات الذل, وأدنى مهاوي الخزي, ويكون عن الموت — والعياذ بالله تعالى — في أشد الألم, لأنه يجتمع عليه ألمان : ألم سكرات الموت, وألم الندم على ما فرط في جنب الله, الذي ينتج العذاب الأليم بعد الموت, فيتمنى الإنسان عند سكرات الموت أنه كان ترابا ولم يخالف السنة قبل يوم القيامة, لأنه لا يمكنه أن يرجع إلى الدنيا فيعمل صالحا, أسأل الله تعالى أن يعيذني وأهلي وإخواني من مخالفة السنة, ومن معصية الله تعالى.

النتيجة الثانية : الإسلام وطن

ظهر للعاقل أن الإسلام وطن, ولما كان الإسلام وطنا لكل مسلم, فالواجب على كل مسلم بذل النفس والنفيس في حفظ هذا الوطن العزيز, والذود عنه بكل ما فى الوسع, حتى يكون وطننا العزيز أغلى عندنا من أنفسنا ومن آبائنا ومن الدنيا, ومن أولادنا وأموالنا وتجارتنا وزراعتنا, حتى تظهر جمالاته الحقيقية علنا, وخيراته الجميلة جلية, وفوائده الحقيقية مشهودة, وكذلك نعتنى بوطننا العزيز بحفظه والعمل له, والسهر والتعب في اختراع ما به رفعة شأنه, وإعلاء كلمته, وقوة سلطانه, وثروة أهله, وخير بنيه, بالعلم والعمل, لا بالتمني والأمل, وبذلك يكون كل فرد من أهل وطننا العزيز عزيزا غنيا شريفا كريما, إماما متبوعا إن لم يكن أميرا أو وزيرا أو قائدا.كل ذلك يكون ببذل ما في الوسع لإعزاز وطننا, وجلب الخير له, ودفع عدوه عنه, والغيرة عليه, والعصبية له, حتى يكون كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغورهذا الوطن العزيز, ويحفظه من عدوه, ويجلب الخير لإخوته أهل الوطن,

وكل واحدمن المسلمين في أى أرض كان, وعلى أى حال كان, وفي أي شأن كان, يجعل مهمته العظمى وغايته القصوى حفظ ثغره الذي هو عليه, ولو أهمل الواقفون على الثغور فإن هذا الوطن العزيز – الذي هو الإسلام – محاط بعناية الله ومعونته, قال الله تعالى :﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [3] وقال تعالى :﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [4] وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [5] وقال ﴿ﷺ﴾ (احفظ الله يحفظك, احفظ الله تجده تجاهك) [6]

إن هذا الوطن العزيز – الذي هو الإسلام –كان الواقف على جميع ثغوره سيد خلق الله, وإمام رسل الله, سيدنا ومولانا مُحَمَّد ﴿ﷺ﴾ منفردا ليس معه إلا الله, فأيده الله ونصره.

وهكذا لو أن واحدا منفردا من المسلمين قام محافظا على ثغره, ولو أهمل جميع من على الثغور, فإن الله تعالى ينصره, ويحمي به بقية الثغور, ويمده بالملائكة والمؤمنين من ثغور الإسلام, فإذا تهاون إخوانك فاشدد لئلا يدخل العدو من قبلك.

بالمحافظة على وطننا العزيز, وببذل أنفسنا وأموالنا في الذود عنه ؛ وبالمسارعة في العمل له ؛ نصبح ومن في الأرض جميعا إما عبيدا لنا, أو أتباعا أهل ذمة, أو إخوانا لنا يعملون لوطننا العزيز كما نعمل نحن لهم, وبذلك يمنحنا الله العزة الحقيقية التي تلمس بالجوارح, وتشعر بها القلوب, فيشهد المسلم العالم كله يدينون له ذلا وصغارا, إذلالا لأنفسهم وإعزاز لنا وإكبارا, أو يدينون بديننا الحق فيكونون

---

(1) سورة الحجر آية 9.
(2) سورة محمد آية 7.
(3) سورة الروم آية 47.
(4) آخر سورة المجادلة.
(5) آخر سورة النحل
(6) رواه الترمذى عن ابن عباس قال « كنت خلف النبى ﴿ﷺ﴾ يوماً فقال ياغلام إنى أعلمك كلمات، إحفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فأستعن بالله، واعلم أن الأمة لو أجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف ».

للمسلمين إخوانا, سر الحكمة التي يقصدها رسول الله ﷺ بقوله : (لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النَّعم). [1]

نيل المجد بالإقتداء بسلفنا الصالح :

فيا إخوتي المؤمنين : باقتدائكم بسلفنا الصالح ؛ ورجوعكم إلى ما كانوا عليه ؛ واتخاذ الإسلام هو الوطن العزيز الذي يفدى بالأنفس والأموال ؛ تفتح لنا ياإخوتي كنوز الأرض بالعلوم والمخترعات، وتفتح لنا مدائن الأرض بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وتنشرح صدورنا بما يجدده الله لنا،ويفيضه علينا في كل نفس من الخير والفضل العظيم، وبما نناله من الخير على يد أبنائنا وجيراننا وأهل بلدنا المسلمين، الذين يبذل كل واحد منهم ما في وسعه ليدخل السرور على قلب أخيه كما قال الله تعالى :﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [2]

وبذلك يكون كل مسلم – وهو في كون الفساد ودار الفناء –كأنه في الجنة, لانشراح صدره, وتيسير أمره, أو عمله بما يرضي ربه عنه, وكفى بذلك ياإخوتي سعادة وعزا في الدنيا, مع أن هذه اللذة والنعمة في الدنيا بالنسبة لملاذ الآخرة ونعيمهاكآلام المرض في جانب ملاذ العافية, وهناك فوق ذلك ملاذ ونعم وخيرات لا يمكن أن تتصورها العقول, قال الله تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِبِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [3] وليس بإنسان – بل ولا حيوان أعجمى – من يجعل له وطنا آخرغير الإسلام يتعصب له, ويدافع عنه, ويقوم عاملا بالباطل, بعد علمه حق العلم أنه بمحافظته علىوطنه العزيز – الذي هو الإسلام – يكون ملِكا- بكسر اللام – عزيزا في الدنيا, وملَكا – بفتح اللام – مقرباً, متنعما بمشاهد القدس الأعلى يوم القيامة.

هذا, ومتى قام عامل بالباطل ونجح في عمله ؟ أو متى قام مجتمع من الناس يعملون عملهم ولم يكن الله معهم ونجحوا في عملهم ؟ فإنهم – ولو نالوا ما يقصدون من حظوظ عاجلة وملاذ فانية – لا تدوم لهم إلا ريثما يفارقونهما إلى الهاوية بالموت, أوتفارقهم قبل الموت, فيرجعون إلى الذل والهوان

---

(1) من حديث طويل متفق عليه (حمر النعم) الإبل، والحمر منها أنفس أموال العرب.
(2) سورة المائدة آية 2.
(3) سورة السجدة آية 17.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [1]قال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [2].

فياإخوتي المسلمين : ليس بينكم وبين المجد الذي كان لأسلافنا ﷺ إلا كما بينهم وبينكم, من أنهم اتخذوا الإسلام وطنا فعملوا له وحفظوه, ودفعوا عنه أعداءه, وجلبوا له كل الخيرات, وأنتم اتخذتم أرضا تسكنونها وطنا, وتركتم الإسلام وعملتم للأرض, فالتفت الله عن الذين لم يتخذوا الإسلام وطنا, فجاء أعداؤهم وملكوا الأرض منهم, وأذلوهم في قعر بيوتهم, وما أذل الله قوما بعد أن أعزهم إلابترك ما به كان عزهم, قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾ [3]

فياإخوتي المسلمين : الأمر سهل، والله قريب مجيب، تواب غفور، فهلموا بنا نتوب إلى الله تعالى ونندم،ونعاهد الله تعالى – فيما بيننا وبينه سبحانه – على أن نتشبه بسلفنا الصالح، ونجاهد أنفسنا على الاقتداء بهم، ونقوم بإخلاص لله رب العالمين، في تجديد سنن نبينا ﷺ والعمل بكتاب الله تعالى، ونجعل الحق سبحانه هو الحكم العدل، أمره فوق شهوتنا وحظنا ولذتنا وأملنا، ونعرف الخلق بالحق، لا نعرف الحق بالخلق.

مبالغة الجهلاء في مدح أعداء الله :

إن بعضنا من جهالته، بلغ به الجهل إلى أن بالغ في مدح أعداء الله وأعدائنا، حتى رفعهم إلى أن جعلهم خلفاء ربنا، وأن الله يحبهم ويبغض المؤمنين، وقد تعالى غيرهم من المسلمين فجعلوا قوما يعتقدون أن الله لامس امرأة فحملت منه، ووضعت ولدا هو ابن الله – عقيدة تبين أن معتقدها ليس له عقل يزن به، ولا فكر يفكر به، ولا قوة إدراك يدرك بها – جعلوهم أئمة يهتدون بهم – مع قلة عقولهم – وقادة يقتدون بهم – مع ضعف مداركهم- وجعلوهم رجال الرحمة ومبعث الخير، وهم لا يسمعون ولا يعقلون.

---

(1) سورة طه آية 127.
(2) سورة الشعراء آية 88-89
(3) سورة الرعد آية 11.

ولو أنهم كانوا يسمعون لسمعوا الأدلة الناصعة على تنزيه الله عن الولد والوالد، وتقديسه عن الشبيه والنظير.

ولو أنهم كانوا يعقلون لما اعتقدوا تلك العقيدة التي لا يعتقدها حيوان، لأن الحيوان الأعجم لا يعتقد أن حيوانا مثله في الشكل أو في العمل ابن إنسان، ولو تفوق عليه فى الطرق التي يجلب بها الخير لنفسه، ويدفع بها الشر عن نفسه، فإذا كان الحيوان الأعجم لا يعتقد أن حيوانا مثله ابن إنسان يجب أن ينقاد له كما ينقاد لأبيه – لأن أباه ملك الحيوان – فيكف يعتقد الإنسان العاقل أن الله العلي العظيم يطأ امرأة يأتي منها بولد يكون هو الرب أو ابن الرب، ولو تأول أهل الجهالة في الحمل والولادة ؛ فإن كل تأويل تأولوه يخجل وجه حيوان أعجم إذا تصوره، ويتبرأ منه القرد والنسناس فضلا عن الإنسان.

فقوم لم يجعل الله لهم نورا يميزون به بين جمال الروح الإنساني، وجمال الجسم الحيواني، وافتخروا باستخدام المادة وتنويعها كما يعمل العنكبوت في المادة لتحصيل قوته، وكما يعمل النحل في تنويع المادة لنفعه، فهم آلات لخدمة المادة للنفع بها، فهل يكون أمثال الحيوانات أئمة للمتقين ؟ أو قادة للحكماء الذين كبرت نفوسهم وكملت عقولهم ؟ أو خلفاء ربنا من أئمة الهدى والمتقين ؟ اللهم رحماك بالمسلمين.

ياإخوتي المسلمين : وطنكم العزيز الإسلام، وقد أمرنا بالعمل في الدنيا للدفع عنه والمحافظة عليه، وإعزاز جانبه، قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [2].

بشرى للمسلمين :

(1) سورة الأنفال آية 60.
(2) سورة التوبة آية 105.

وإني أبشر إخوتي المسلمين أننا في زمان, لو أننا عملنا بجزء من عشرة أجزاء من وصايا الإسلام, ومنحنا الله العناية الإلهية, وأذل أعداءنا, وجعل لنا السلطان, ووفقنا للعمل بكل وصايا الإسلام, فكنا – ونحن في القرن الرابع عشر – كأننا في القرن الأول, لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [1] في أي زمان كانوا, وفي أى مكان, ولا نزال في معية رسول الله, مادمنا نعمل بكتاب الله وبسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾, وذلك لأن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾, ولا تحصل التقوى والإحسان اللذان ينتجان الشرف العظيم الذي يكون الله تعالى به معنا, إلا بعد أن نكون مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالتجمل بالصفات التي أثنى بها على أهل معيته ﴿ﷺ﴾ في آخر الفتح, قال سبحانه : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ.....﴾ [2] وكل مسلم يجب أن يكون مع رسول الله ﴿ﷺ﴾ ما عليه إلا أنه يجاهد نفسه وأن يتشبه بأصحابه الكرام, ثم يبشر نفسه بأنه ممن اشتاق إليهم رسول الله ﴿ﷺ﴾, ولا يشتاق رسول الله ﴿ﷺ﴾ إلا إلى أحبابه في قوله : (واشوقاه إلى إخواني الذين لما يأتوا بعد....).

حقا أقول : إن المسلم في هذا الزمان يمكنه – بتوفيق الله وعنايته – أن يكون مع رسول الله, ويكون الله معه, ويكون محبوبا لرسول الله, محبوبا لله, بلفتة قلبه, وحركة جسمه, وإن مسلما يوضع له المعراج ليسمو إلى جبروت القدس الأعلى, تهوي به شهوته إلى أسفل الحطمة والذل لغير مسلم, والإسلام بريء منه, لأنه يعمل بغير شرائع القرآن, قال الله تعالى : ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾ [3] ومن يؤثر حظا فانيا يتوهم أن يناله – قد لا يناله ولو ناله – على سعادة أبدية ونعيم مقيم ورضوان من الله أكبر ؛ هذا في نظر الحكماءأضل من الأنعام, واشقى من الشياطين, وأدنى من الجماد, وإن كانت صورته صورة الإنسان. ومن كان يترك الكمالات النفسانية والتجمل بالفضائل القرآنية والتحلي بحلل الرجال العاملين لله, يترك كل ذلك للذة مطعم يكون بعد رجيعا، أو منكح يئول إلى أن يكون كالمرحاض للبول، فقد أبدل النعيم الدائم بالشقاء الأبدي، والخير الحقيقي بالضرر الذي لا يزول.

---

(1) آخر سورة النحل.
(2) سورة الفتح آية 29.
(3) سورة النساء آية 115.

الإسلام هو الوطن، والعمل له به عز في الدنيا وسعادة في الآخرة، وعلى ذلك فالمسلم في جزائر المحيط الأطلنطي يدافع عن وطنه الإسلام، وعن أهل وطنه المسلمين بنفسه وماله وهم في جبال القوقاز، يبذل ماله إن لم يتمكن من بذل نفسه لهم، ويقوم حاثا أهل وطنه في بلده أن يدافعوا عن مواطنهم في الإسلام وعن وطنهم الإسلام بأنفسهم وأموالهم، فإذا انفصل المسلمون وهم في رأس الرجاء الصالح، عن المسلمين وهم في جبال القوقاز، كان ذلك كفصل الرجل عن الرأس، وبفصل الرجل عن الرأس لا يخفى ما يحصل من ضعف الجسد، وعطلة آلته وأدواته.

ولقائل أن يقول : كيف أدافع عن وطني وأهل وطني، وقد حال بيني وبينهم العدو الساعي في محو القرآن والسنة بالضلال والكفر ؟.

أقول لك ياأخي : إن عجزت عن العمل بيدك فاعمل بلسانك، فإن العمل باللسان مفتاح العمل باليد، وأن عجزت عن العمل بلسانك فاعمل بقلبك، بأن توجه قلبك إلى ربك سبحانه، وتسأله أن يحفظ وطنك وأهل وطنك، وأن يجدد المجد لك ولأهل وطنك بالعمل لوطنك العزيز، الذي هو الإسلام، فإنك بذلك لا تحرم ياأخي من عناية الله بك ومعونته لك، وإكراما منه يجمع عليك إخوتك الصادقين، الذين يمكنك أن تعمل معهم بلسانك، ثم يكون الله معكم فتعملون بأيديكم، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [1] وقال تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ [2] فإذا عملت بقلبك وبلسانك وجمع الله عليك إخوتك المخلصين، وهم القليلون في كل زمان خصوصا عند قوة سلطان أعداء الله، فإنكم ياأخي بتوجهكم إلى الله سبحانه وتعالى بوجوهكم رغبة نيل رضاه الأكبر، يلقي العداوة والبغضاء بين أعدائكم ويشغلهم بأنفسهم عنكم، حتى يوقد نار الحرب بينهم، فيمحقهم ببعضهم محقا، كل ذلك إكرام من الله لبقيته الباقية من حزبه.

أدعُ نفسك أولا :

كن على ثقة أيها الأخ أن أكبر الجهاد جهادك نفسك في ذات الله، فلا تشتغل بجهادغيرك إلا بعد أن تجاهد نفسك، جهادا يجعلها سهلة القيادة، متلذذة بالآلام في طاعةالله، تفرح بإعلاء كلمة الله

---

(1) سورة الحج آية 38.
(2) سورة البقرة آية 257.

تعالى، وتجديد سنة رسول الله ﴿ﷺ﴾، ولو أدى ذلك إلى تحمل ما لا يطاق من المصاعب، وارتكاب ما لم يتحمل من الشدائد، فإن أنست من نفسك بتلك الصفات، فتحققت أنه لا غرض لها في مال ولا جاه، ولا في منصب،ولا لذة في الدنيا ولا شهوة في الآخرة، فكن واثقا أن الله معك وناصرك، واحذر أن تدعي أن نفسك تزكت من غير برهان يطمئن به قلبك، فإن للنفوس أمراضا خفية تخفى على أحذق حكماء العارفين، ومن ادعى هذا المقام بلا حجة لا يكون مع الله، ومن لم يكن مع الله كيف يكون الله معه ؟ ! قال الله تعالى : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ﴾ [1] اجتهد ياأخي أن تجعل همتك أولا في دعوة نفسك، حتى تستجيب لله رب العالمين، بحال يرضيك رضاء حقيقيا، فإنك أعلم بنفسك من غيرك، وإن كنت تجهل أمراضها، فإن حظوظها، التي تبعثها على العمل لا تخفى على العامل، والله سبحانه وتعالى ينصر من ينصره، قال سبحانه : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [2].

طريق الدعوة إلى تجديد السنة :

فأما طريق الدعوة إلى تجديد سنة رسول الله، وإعلان كلمة الله، في حال ما إذا كان للمسلمين سلطان يقيم حدود الله تعالى، ويضرب على يد أهل الفساد، فهي مهمة الحكماء، فما على العالم إلا أن يجتهد في العمل لله سبحانه، بالزهد في الدنيا وفيما فى أيدي الناس، إلا ما لابد منه بالعمل، أو بمساعدة من إخوان الصفا والوفا، حتى ينال بزهده في الدنيا محبة الله تعالى، وينال بزهده ما في أيدي الناس محبة الناس فإذا أحبه الله جعل قلبه فقيها يتلقعن ربه سبحانه، وأمده بروح القدس، وألقى عليه محبة منه، وإذا أحبه الناس سمعوا منه وعملوا بعمله، فإذا سمعوا منه وعملوا بعمله يجب عليه أن يحافظ على الواجبات والسنن، ونوافل الخير في العبادات والمعاملة والأخلاق، وإذا سمعوا منه يجب عليه أن لا يسمعهم إلا ما به كمال يقين قلوبهم بالدار الآخرة، وبأيام الله، وبمعرفة الله، حتى تكون قلوبهم خاشعة وأبدانهم لينة، فيكون بذلك جدد سنن رسول الله بالحكمة والموعظة، ولم يحتج إلى سوط السلطان.

وبهذا لا يلبث إلا ويكون سلطان المسلمين تابعا له مقتديا بهديه، فإذا مكنه الله من قلبه يجب عليه أن يديم مراقبة الله، وملاحظة عظمته، ومشاهدة الدار الآخرة، وما عليه الدنيا من الفناء والزوال،

---

(1) سورة آل عمران آية 126.
(2) سورة الحديد آية 25.

وليكن حكيما طبيبا رفيقا معه، حتى لا تدعوه الرغبة فيه إلى التساهل في سنة رسول الله، ولا الغيرة على السنة إلى تنفيره، وكما دعا نفسه في بدايته، ودعا إخوته المسلمين بعد أن كملت نفسه، يدعو سلطان المسلمين إن سخره الله له كدعوته لنفسه، وأن يقرأ في كل يوم وليلة – ليكون في خلوته أشد خوفا من الله، وأعظم مراقبة له سبحانه – من القرآن بعض آيات في الإنذار والتخويف لنفسه في خلوته، ولا يرائي الناس ظاهرا، فإنه بذلك يدوم له إقبال الله تعالى ونصره له وعنايته، وكفى هذا العالم العامل شرفا أنه صار صورة كاملة لرسول الله ﷺ في عصره ؟ ينظر الله إلى عباده المسلمين من قلبه، ويكرم الله عباده لأجله، ويلهمه الله الخير والرشاد والهدى والنور، لينفع الله به عباده المسلمين.

واعلم – أيها الأخ الموفق – أن هذا المقام مقام على لا ينبغي أن يتعرض له إلا الذي تكشفت له الدنيا عن حقيقتها، وتحقق زوالها، وعلم قدر العقوبة على عمل المعاصي،وتجلت له الدار الآخرة، وشهد ما فيها من النعيم المقيم، والملاذ الحقيقية لمن جاهد نفسه في ذات الله، وشهد فيها مهاوي جهنم، وما فيها من أليم العذاب وشديد العقاب وسوء المنقلب والعياذ بالله تعالى، ففر من الدنيا لنجاة نفسه، وفر من معصية الله ومخالفة أمره للفوز بالنعيم الأبدي والنجاة من عذاب الله الأليم، وفر من نفسه إلى الله لتدوم مواجهته لقدس الجبروت الأعلى، فإذا رقى تلك المراقي وتجمل بتلك الحلل ؛ وذاق من صافي هذا الطهور ؛ كان هو الشمس المشرقة للقلوب، والنور المضيء للأرواح، ونجاة عباد الله من غضب الله.

فإذا أنست من نفسك – ياأخي – بتلك المعاني، فكن سيء الظن بها ولو في عمل القربات، حسن الظن بالله تعالى، واتهم نفسك وهي في عمل القربات، أكثر مما يتهم غيرك نفسه وهو في عمل الكبائر، فإن زلتك – ياأخي – زلة للمسلمين،واستحسانك نفسك ورضاك عنها غفلة عن شهود رب العالمين، ونسيان لفضل الله العظيم عليك، والأدب الحقيقي أن ترى كل ما تقوم به من أعمال الخير بتوفيق الله ومعونته، فتجتهد أن يكون خالصا لله، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله، فما وقع منك من اللمم أو من المعاصي فانسبه لنفسك بما فيها من الرعونات والنزوع إلى الشهوات، واستغفر الله إن الله غفور رحيم.

دعاة أهل التكفير والتشريك والتبديع :

واعلم أن بعض العلماء قد يكون داعيا إلى الخير قبل أن تزكو نفسه، فيكون سببا في تفرقة جماعة المسلمين بعد اجتماعهم, لأنه إما أن يخرج على الأمراء ويقبح أعمالهم أمام العامة ويعتقد أنه يعمل

لله, وهو إنما يعمل للشيطان, لأنه بعمله هذا قد يفرق الجماعة, فيضرب بعضهم وجه بعض, والله تعالى يقول : ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [1] وقال ﴿ﷺ﴾ : (أمير غشوم خير من فتنة تدوم) [2] ومثل هذا من شر الدعاة.

ومنهم من يقوم منكرا على أعمال – إن لم تكن من أعمال البر فإنها قد تكون داعية إليه – ويدعي أنها بدع مضلة, ولعن فاعلها, حتى يوقع العامة في عداوة بعضهم ولعن بعضهم, ويظن – لقس النفس – أنه يجاهد في محو البدعة, والحقيقة أنه يجاهد, ولكن في تفريق الجماعة واختلاف الأمة, ولأن يترك العامة على كل فعل بدعة من البدع التي تعين على عمل الواجب, خير من فتح باب الشر عليهم ووقوع المسلمين في عداوة بعضهم بعضا.

ومثل هؤلاء أضر على المسلمين من تفشي الأمراض, وعلامة هؤلاء أن يبتدئوا بالدعوة إلى السنة, ولم تكن أنفسهم قد تجملت بأخلاق الدعاة, فإذا لم يقبل منهم السامع لهم قاموا فحكموا بكفره, ورموه بالجحود وبالضلال, وشنعوا عليه في كل مجالسهم, فإذا قام عالم وبين وجه خطئهم, أعجبوا برأيهم, وقاموا فكتبوا الرسائل في الرد عليه, ورأوا أنفسهم أكبر من أن يخطئوا, وأعظم من أن يقبلوا النصيحة من غيرهم, ونظروا في أنفسهم الكمال المطلق, الذي يوجب على كل موجود أن يتبعهم ويخضع لهم, ولو كانوا على ضلال بين من تنفير الناس ووقوع العداوة بينهم.

وهذا سيد أئمة الهدى سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ, كان إذا حكم حكما وجاء عمر وقال الحكم كذا, أخذ بحكمه وترك حكم نفسه, وكذلك كان أمير المؤمنين سيدنا عمر ﷺ يحكم ويحكم سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام بغير ما حكم به, فيعمل بحكم سيدنا علي, لأنهم يرون الحق أكبر منهم, وهكذا سنة الهداة الراشدين المرشدين, إذا حكم أحدهم بحكم في مسألة, وظهر له بطلانه أعلن ذلك لخاصة الناس وعامتهم, ونصر الحق على نفسه, والحق أحق أن يتبع, وتلك شمائل العلماء الربانيين, والحكماء الروحانيين, الذين عرفوا أنفسهم فعرفوا ربهم سبحانه وتعالى, وفروا من أنفسهم ومن كل من سواها وما سواها إلى الحق سبحانه.

---

(1) سورة الأنفال آية 46.

(2) مما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال : « من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقدعصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني» (متفق عليه)

وقد بينت في : (معارج المقربين) طرق معرفة الإخوان واختيارهم وأوصافهم, ومن وفقه الله أعانه على عمل ما يحبه ويرضاه, أسأله العناية والتوفيق والعفو والغفران والقبول والرضوان والحفظ والسلامة والعافية في الأمر كله.

النتيجة الثالثة : الإسلام نسب

تقرر بما قدمناه من الأدلة أن الإسلام هو النسب الحقيقي الذي يجمع أفراد المسلمين, ويجعلهم جميعا يداً واحدة على جلب الخير لكل واحد منهم, وجلب الخير للجميع, ودفع الضر عن كل واحد منهم, ودفع الضر عن الجميع, فكل فرد من أفراد المسلمين يعمل للجميع, والجميع يعمل لكل فرد, والتعاون الحقيقي والتباذل والتناصر والتحابب, بل وحسن المعاشرة وجمال المجالسة وإيثار الغير على النفس, كل تلك المعاني لا تتحقق بمعناها الأكمل إلا بين الأقارب في أخوة الإسلام, الذين اتصل نسبهم بالإسلام إلى الله ورسوله, فكانوا أخوة في الله ورسوله, وأقارب في الله ورسوله, وأحبابا في الله ورسوله, وبذلك يكون البذل والنصرة, والإيثار والحب وبذل النفس والمال في جهاد العدو الذي يسعى في ضرر المسلمين لله تعالى وفي الله, خالصا من كل شوب من هوى أو حظ من حظوظ الدنيا, وقال الله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[1]

هذه الآية صريحة في أن كل من يدعي الإسلام ثم يؤثر حب آبائه وأبنائه وأزواجه وعشيرته – أي عشرائه من أقاربه – والأموال التي كسبها والتجارة التي يرجو ربحها والمساكن, على محبة الله ورسوله, والقيام بما أمر به والرغبة فيما عنده, فهو فاسق متعد حدود الله تعالى.

(1) سورة التوبة آية 24

النسب نسبان :

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [1] هذه الآية الشريفة تدلنا على أن النسب نسبان :نسب إلى الآباء, ونسب إلى الله ورسوله.

فالنسب إلى الآباء من السنة, وهو أن يعرف الرجل أهل قرابة أمه وأبيه, ويعرف أولوا الأرحام بعضهم, فيصل كل واحد رحمه إطاعة لأمر الله, وعملا بسنة رسول الله, فإن الرجل قد يجهل أقاربه, حتى قد يعامل أقرب الناس إليه نسبا معاملة الأجنبي, ولو أنه عرف قرابته منه لتساهل معه وأكرمه كرامة القريب للقريب.

ونسب الله تعالى هو العمل بكتابه سبحانه وبسنة نبيه ﴿ﷺ﴾ بعد العلم الذي يوجب الخشية من الله تعالى, والمسلم بذلك أخو المسلم نسبا حقيقيا فوق نسب الآباء والأمهات, الذي لا يقصد منه إلا التعارف للصلة والبر الواجبين على المسلم بحكم الشرع.

ولم يبق إلا النسب الإسلامي بعد قوله ﴿ﷺ﴾ : (أدخل الإسلام بلالا في نسبي, وأخرج الكفر أبا لهب من نسبي) وقوله ﴿ﷺ﴾ : (سلمان منا أهل البيت) وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [2] أراد سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام, أنه من أهله يعنى من زوجته ومن نفسه, فرد عليه الله سبحانه وتعالى معاتبا ومؤدبا, ومقررا أن هذا ليس هو النسب, وإنما النسب حقيقة هو التقوى, لقوله سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [3] أدب الله سيدنا نوحا عليه الصلاة والسلام, من أجل أنه جعل ابنه الفاسق من أهله, وبما فهمه من قوله سبحانه وتعالى : ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [4] فكان مراد الله – وهو أعلم بمراده – أن أهل سيدنا نوح هم الذين آمنوا به وصدقوه, وهم المتحققون بالنسب الديني ولو لم يكونوا من ظهره, وفهم سيدنا نوح إطلاق

(1) سورة الحجرات آية 13
(2) سورة هود آية 45
(3) سورة هود آية 46
(4) سورة هود آية 40

اللفظ, وأن الابن من الصلب هو من أهله ولو كان فاسقا, فأدبه الله تعالى وقال له : (إنه ليس من أهلك) أي : ليس من نسبك الروحاني, وإن فرض أنه منسوب إليه, وفي قوله تعالى : (إنه عمل غير صالح) رواية أخرى هي : (إنه عملَ) – بفتح اللام – على أن التقدير أنه فعل فعلا غير صالح أخرجه عن النسب الروحاني الذي به يكون من أهلك, وقال الله تعالى لخليله عليه الصلاة والسلام :﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾. [1]

فكأن النسب الحقيقي – الذي به الإكرام من الله والكرامة عند الله – هو نسب التقوى, ولا شك إذا أن النسب للآباء والأمهات لا يعد نسبا حقيقيا, إلا بقدر ما حكم الشرع الشريف للنسب به من الصلة والبر, إذا فالإسلام هو النسب حقا الذي به الإيثار والبذل والحب, ومن رأى نسبا غيره وقال إني مسلم, فهو فاسق.

ومن هذا ينتج أن نجعل الفخر لأهل التقوى, وأن لا نلتفت إلى الفخر بالآباء والأجداد والأمهات, ونترك النعرة بالنسب الجاهلي, ونجعل نسبنا حقا الذي نصله بأرواحنا وأموالنا وأنفسنا هو الإسلام, بل ونتعصب له بأجلى مظاهر التعصب, ندفع عدوه عنه بأنفسنا وأموالنا, ويكون كل مسلم تقى أحب إلينا من أنفسنا وأموالنا وآبائنا وأبنائنا, حبا لله ورسوله ﴿ﷺ﴾.

أهل المدينة المنورة :

وبذلك يكون كل مسلم – أين كان وكيف كان – لكل مسلم كاليد لليد, والعين للعين, والأذن للأذن, بل ويكون كل مسلم للمجتمع الإسلامي كاليد للجسم, وكالعين للجسم, وكالأذن للجسم, ويكون المجتمع الإسلامي لكل فرد من أفراد المسلمين كمجموع الجسم للعين, وبذلك يكون المجتمع الإسلامي هو أهل المدينة المنورة بأكمل معاني أهل المدينة, بل ويكون كل فرد من المسلمين مع رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالمعية الحقيقية, والمجتمع الإسلامي كلهم أهل معية رسول الله ﴿ﷺ﴾ لأنهم لا يعملون عملا إلا إذا سألوه ﴿ﷺ﴾ عن سنته, من ورثته المحافظين على آثاره, فيكون المجيب علىالسؤال أو المفتي للمستفتي هو في الحقيقة رسول الله ﴿ﷺ﴾، وإن كان المتكلم بلسانه هو شخص آخر، لأنه أجاب بصريح ما كان يتكلم به رسول الله ﴿ﷺ﴾ في مثل هذا الموضوع فيكون رسول الله ﴿ﷺ﴾

(1) سورة البقرة آية 124.

في المسلمين بمدلول قوله تعالى : ﴿فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [1] ويكون الله مع المجتمع الإسلامي، ومع كل فرد من أفراده، ذلك لأن المسلم لايعمل العمل إلا إذا بينه له القرآن بأن أوجبه عليه أو رغبه فيه أو أباحه له، فيكون في عمله كأنه يتلقى أحكام أعماله عن ربه، وبذلك فإنك ترى العلماء الراسخين في العلم إذا سألت أحدهم : لم فعلت هذا الفعل ؟ يقول : أمرني القرآن، ولم لم تفعل هذا الفعل ؟يقول : نهاني القرآن،وهذا يفسر قوله ﴿ﷺ﴾ : (آل القرآن آل الله) ومعنى ذلك – والله أعلم بمراد رسول الله ﴿ﷺ﴾ – : أن المقربين إلى الله قربا تجعل لهم قرابة نسبية، لا يعملون إلا بالقرآن، ولا يتركون إلا بالقرآن، ومن كانوا كذلك فهم آل الله تعالى.

هذا النسب يجعل لكل مسلم عزة من الله تعالى تقطع نياط قلوب أعدائه، وغنى بالله تعالى يحفظه الله به من الاحتياج لشرار خلقه، وقوة من الله تعالى حسا ومعنى، أما حسا فإنه يشهد نفسه بين أبناء بررة وهم الذين أقل منه في العمر من إخوته المسلمين، وبين أولياء رحماء وهم المساوون له في السن، وبين آباء متصفين بأعظم عواطف الأبوة وهم الكبار عنه في السن ومن كان كذلك كان غنيا في فقره، عزيزا في غربته، قويا في ضعفه، مهيبا بين أعدائه، لما يعلمه أعداؤه من أنصاره وأوليائه،وكأن الشاعر العربي عنى المسلمين بقوله :

إِذَا بَلَـــغَ ٱلْفِطَـــامُ لَنَـــا وَلِيـــدَ	تَخِـــرُّ لَـــهَ أَعَادِينَـــا سُـــجُودَا

هكذا كان سلفنا الصالح مذ كان الإسلام نسبهم، ومن قربه الإسلام قريبهم، ومن أبعده الإسلام عدوهم، لا فرق بين الشريف الهاشمي، والوضيع العجمي، عملا بقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [2] وكل من كان هو أكرم عند الله من غيره, فهو أكرم من باب أولى عندنا, ولو كان غلاما عجميا.

---

(1) سورة الحجرات آية 7
(2) سورة الحجرات آية 13

الفصل الثاني
وسائل نيل المجد الإسلامي

الحنين إلى هذا المجد :

كل مسلم آمن بالله سبحانه وتعالى وبرسوله ﴿ﷺ﴾, وصدق بيوم الحساب يحن إلى هذا المجد الذى تفضل الله به على سلفنا الصالح, بعد أن وفقهم للإيمان وأعانهم على العمل الصالح, بدليل قوله تعالى :﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾. [1]

وصدق الله العظيم, فإن الله سبحانه وتعالى جعلهم خلفاء في الأرض, بعد أن أذل بهم الأكاسرة والقياصرة وجبابرة الجاهلية, ومحا بهم ظلم الظالمين, ومكن لهم في الأرض بالحق, منحهم الأمن بعد الخوف وجعلهم أئمة للهدى, يقيمون حدود الله بسلطان الله وقوته, ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين, فكانت صورهم صور الأناسى, وأعمالهم أعمال الروحانيين عمار ملكوت الله الأعلى, وكان الله معهم, أعطاهم كلمته, وصرفهم في عوالم كونه, أخضع بهم الكفرة الظلمة وسخر لهم ملائكته, فكان العالم أجمع بين مقهور بهم – من أهل الفساد في الأرض – أو مطيع لهم – من سكان الملكوت – بل كان الله يطيعهم ويستجيب لهم, حتى كان المسلم إذا عمل له غير المسلم عملا, فقال : هداك الله, أو : رحمك الله, لا يكاد يفارقه إلا وقد ملأ الله قلبه إيمانا, استجابة لدعاء المسلم.

وأى شرف ومجد وعز فوق استجابة الله لعبده وطاعته له ؟

ومن فهم قوله تعالى : ﴿هل يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [2] أن معناها : هل يطيعك ربك ؟ تحقق أن الله يطيع من أطاعه ويستجيب لمن استجاب له وقوله تعالى : ﴿ومن كفر بعد ذلك﴾ أي : من خالف السلف الصالح وترك العمل بما كانوا عليه, وعملوا برأيهم لحظهم, وتركوا سنة أئمة الهدى, واتبعوا غير سبيل المؤمنين.

---

(1) سورة النور آية 55
(2) سورة المائدة آية 112

ومن ترك العمل بالسنة فهم الفاسقون، الذين خرجوا من وعد الله فأصابهم ماأصاب جماعة المسلمين في هذا العصر، لتركهم ما كان عليه أسلافنا ﷺ،وأي مسلم لا يحن حنين الثكلى إلى هذا المجد والعز، والخير في الدنيا والآخرة، ويبذل نفسه وماله ووالديه وعشيرته، وأرضا يسكنها ليعود هذا المجد للمسلمين الذي بعودته يفوز المسلم بكل أنواع السعادات في دنياه وفي برزخه وفي آخرته ؟ !.

وسائل تحقيق المجتمع الإسلامى

الوسائل المنتجة لعمل المجتمع الإسلامي بالكتاب والسنة حتى يفوز كل فرد بأنواع الخيرات، ويكون جميع المسلمين هم أهل المدينة المنورة في كل بقاع الأرض، الذي يظهر لي أنها أربع وسائل:

أولا: أن تكون اللغة التي يتفاهم بها جميع المسلمين – مع بعضهم بعضا أو مع غيرهم – هي لغة القرآن والسنة.

ثانيا: أن يجمع جميع المسلمين على إمام واحد يكون هو خليفة رسول الله، ويكون أكمل الناس شبها به ﷺ في العلم والعمل والأخلاق والمعاملات، بحسب أهل زمانه، فلا نزنه بالخلفاء الراشدين لأن ذلك لا يكاد يوجد، لكن نزنه بقدر أهل زمانه، متى أجمع المسلمون، لا نختلف عليه سواء كان عربيا أو عجميا.

ثالثا: أن تقام حدود الله، بمعنى أن يكون العمل بكتاب الله وبسنة رسول الله.

رابعا: أن تكون تربية المسلمين مؤسسة على التربية الدينية، بحيث يكون التعليم أولا قاصرا على تعليم الإيمان ثم القرآن، ثم يكون تعليم الصناعات أو الزراعة أو التجارة،أو تعليم فنون الجهاد, وتدبير المدن, وسياسة المجتمعات, ويكون تعليم تلك الفنون كله مؤسس على الدين, لأنها وسائل لإعلاء كلمة الإسلام, وحفظ ثغوره, وجلب الخير لأهله, وقوة سلطان المسلمين.

أولا : اللغة العربية

أكتب في هذا الموضوع كتابة لأخي الذي منحه الله عين العبرة, وقلب الفكرة, فنظر بقلبه إلى ما كان عليه السلف الصالح وما نحن عليه الآن، فشعر بالفرق البين، بين عز ومجد وعلو في الأرض في الدنيا، وجوار رب العالمين في مقعد صدق يوم القيامة،هذه حالة سلفنا. وبين ذل لمن كانوا عبيدًا لنا،

وفقر لمن كانوا تبعا لنا، وخوف ممن كانوا يعوذون بنا، يتخطفنا من أرضنا من كانوا أهل ذمة أو أرقاء، نتصرف فيهم متى شئنا وكيف شئنا، هذا كله في الدنيا، والعذاب الأليم يوم القيامة، أعوذ بالله من مخالفة السنة والعمل بغير كتاب الله.

من كان يشهد هذا الفرق العجيب بين الآباء والأبناء كيف لا تحصل له الحيرة ويبكي نادما على ما فرط في جنب الله ؟ ويبحث عن هذا المجد الذي تفضل الله به على أجدادنا الذين كانوا في جاهلية عمياء قبله ؟ وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله به من ذنوبهم ؟ فأصبحنا كما تعلم ويشهد التاريخ والآثار الباقية.

هذا المجد حقا لم يكن إلا بقوة الاتحاد والائتلاف والتعصب لإعلاء كلمة الله، والعمل بكتابه وسنة نبيه، ولا اتحاد إلا بدين ولغة ونسب ووطن، ولم تجمع تلك المعاني كلها إلا في الإسلام، فإن للدين لغة هي لغة القرآن ولغة رسول الله ﴿ﷺ﴾ ولغة أئمة الهدى من عرب وعجم، فإن أكثر أئمة الهدى كانوا من العجم ولغتهم هي لغة القرآن.

هذا سيدنا سلمان الفارسي، وهذا سيدنا بلال الحبشي الذي جعله أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب سيدا، بقوله: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا — يعنى بلالا – وهذا صهيب الرومي، الذي ورد فيه : (نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه) كلمة أثنى الله بها على رسله الكرام, وهي كلمة (نعم العبد) [1] وقد أثنى بها رسول الله ﴿ﷺ﴾ على صهيب. وهذا سيدنا أبو رافع مولى رسول الله ﴿ﷺ﴾ وسيدنا حارثة, وسيدنا زيد بن حارثة, وسيدنا أسامة بن زيد, الذي أمَّره رسولُ الله على أئمة المهاجرين والأنصار وغيرهم, ومن لا يحصى عددهم من الأعاجم, لم تكن لهم لغةإلا لغة القرآن, ثم قام بتنفيذ تلك السنة أئمة المسلمين في كل مكان, فكانوا إذا فتحوا مدينة من المدن, حثوا من أسلم على تعليم اللغة العربية, حتى يفهم أسرار الدين وتنكشف له أنواره, وكأن اللغة العربية أصل من أصول الدين, لا يكون الدين كاملا إلا بها, وبدونها لا يكون المسلم مسلما كاملا, بل يكون مقلدا لا تشرق على قلبه أنوار الإسلام, ولا يظهر لنفسه جمال الإسلام الحقيقي.

(1) سورة ص آية 44

وَمَـا عَـيْنٌ رَأَتْ مِـنْ خَلْـفِ سِـتْرٍ	كَعَـيْنٍ شَـاهَدَتْ حِسًّـا وَمَعْـنَى

ولما كان الدين الإسلامي هو كتاب الله وكتاب رسول الله ﷺ وكان لا بد للمسلم أن يحفظ من القرآن ما يجب عليه أن يحفظه فرض عين أو سنة مؤكدة, ليس المراد بحفظه أن يكون كالببغاء, يتكلم بما لا يفهم, فإن ذلك لا يكون به المسلم مسلما قد أقام الصلاة ونطق بكلمة التوحيد, فعلى كل مسلم أن يجعل أول مهم يبذل قصارى همته في نيله تعليم اللغة العربية, وفهم معانيها بقدر ما يخرجه عن أن يكون كالببغاء, بل يحفظ رتبته في الوجود, فلا يعمل عمل إلا ويعلم سره, ولا يعتقد اعتقادا إلا بعد أن يطمئن قلبه به, إما بنور التسليم أو بواضح الحجة, ومن قال : إني مسلم, ولم يتعلم اللغة العربية تعصبا للغته, ورأى لغته أحب إليه من لغة القرآن, وأخذته الغيرة على لغة آبائه وأجداده, التي لم يكن المراد منها إلا التفاهم فقط, كان هاويا في هاوية الذل في الدنيا, وفي حطمة العذاب في الآخرة, لأنه يصير ممن لغة آبائه أحب إليه من لغة كتاب الله وسنة رسول الله, ولو تدبر أخي المسلم – بصره الله بعيوبه ونقائصه – في هذا الأمر لتحقق أن عمله غير سنة, ومحض جهالة لا ينتفع بها في الدنيا, بل تضره في الدنيا وتوبقه في العذاب الأليم في الآخرة, لأنه – لجهله باللغة العربية – يحرم فهم أسرار دينه, وعلم جمالاته الحقيقية, وما كان عليه الأئمة الهداة المرشدون من العوائد الحسنة والشمائل الجميلة والعزيمة الموجبة لرضوان الله تعالى, وكل تلك الكمالات لا يتحصل عليها إلا بتعليم اللغة العربية.

ولقائل أن يقول : إن أكثر من يتكلمون باللغة العربية يجهلون كل تلك المعاني, فأجيبه : إن جهالة المتكلمين باللغة العربية بتلك المعاني, أنتجت لهم المذلة والخسران في الدنيا, لأنهم أهملوا تعليم لغة القرآن والسنة, واقتصروا على اللغة العامة, واجتهدوا في التفنن في تعليم اللغات الأعجمية, ولو أنهم تعلموا اللغة العربية لفهموا أسرار القرآن, ولفقهوا أحكام الله سبحانه وتعالى.

شرف اللغة العربية بالقرآن :

أيها المسلم : دينك الإسلام, ووطنك الإسلام, ونسبك الإسلام, ولغة القرآن هلغتك, فلم تلقي بنفسك من الأفق العلي إلى المكان السحيق ؟ تبعد نفسك عن الله تعالى وعن رسوله

﴿ﷺ﴾ وتقطعها من أخوة المؤمنين, فتقول : إني تونسي, أو : أفغاني, أو : تركي, أو : مصري, أو : بخاري.

نعم, أنا أقول تلك الكلمة عند التعارف لأميز نفسي أمام غيري, ولأرفع الستار عن منزلتي من إخوتي المؤمنين, فربما كان المتكلم معي له قرابة بي لها واجب شرعي, غير واجب الأخوة الإسلامية, من صلة أو إحسان, لكن يلزم أن أكون موقنا أن الإسلام وطني ونسبي كما أنه ديني, وأن لغتي هي لغة القرآن التي لا أتكلم إلا بها – ولو مع غير المسلم كائنا ما كان – من غير نظر إلى أني تركي أكره أن أتكلم بلغة العرب, أو أني صيني وهي لغة العرب, بل لأنها لغة القرآن, لا لأنها لغة العرب.

فإن تعصب العربي لها لأنها لغته ولغة آبائه فقط, بذلك يكون فاسقا ضالا, كما يحصل التعصب للغة العربية من نصارى مصر والشام, زعما أنها لغة آبائهم, أو أنها اللغة الفصحى التي من دونها كل اللغات, فمن تعصب للغة العرب بتلك المعاني فقط فليس بمسلم, وإن كانت في الحقيقة هي اللغة حقا, ويجب على كل عاقل من أنواع بني الإنسان أن يتكلم بها لغزارة مادتها, وخفة ألفاظها على النفس, ولتأثيرها الروحاني على أهل العقول, وحسن أساليبها, ولكن مجدها وشرفها الحقيقي من جهة أنها لغة القرآن فقط, فمن لم يتعلمها بعد علمه أنها لغة القرآن وقال : أنا مسلم, فقد ظلم نفسه وأساء إليها.

أيها المسلم – الحبشي والنوبي والفارسي والبخاري والتركي – : تعلمك اللغة العربية ونطقك بها لا ينسيك نسبك لآبائك, الذي به التعارف والتمييز, ولكنه يجملك بالنسب الرباني, ويجعل لك ملكا يدوم ولا يزول, تنتقل منه من ملك الدنيا إلى الملك الكبير الأبدي في جوار رب العالمين, وأنت أيها العربي المدعي أنك أشرف الخلق, وأن اللغة العربية هي أعظم اللغات, إن كنت تقول ذلك لأنك مسلم مؤمن بالله ورسوله, فأنت صادق لأن أكرم الخلق على الله الأتقياء, وإن حكمت بشرف اللغة العربية لأنها لغة القرآن فصدقت, وهذا ما يقول به أخوك التركي والفارسي والهندي والصيني والسوداني.

وأي مسلم من أنواع الخلق تقول له : اللغة العربية أفضل اللغات, ويجب تعلمهالأنها لغة القرآن يقول لك : لا ؟ وأي مسلم من أي أنواع الناس تقول له : إني عربي مؤمن بالله ورسوله عامل بكتاب الله وسنة رسول الله, فأنا كريم على الله ويقول لك المسلم : لا ؟

إذًا تنبه من غفلتك أيها العربي, واحفظ لإخوانك المسلمين حقوقهم. إن كان ما يفتخر به اليهودي والنصراني والمجوسي – ممن يدعون أنهم عرب – هو فخر لك, فاستعذ بالله أيها الإنسان, فمن افتخر على إخوته المؤمنين بما يفتخر به هؤلاء. فليس بمسلم عند العلماء, وكيف يرضيك أن تقول : إني عربي, وأنت تعين الكافر الذى يتعصب للغته ليفرق كلمة إخوتك المؤمنين من ترك أو فُرس أو هنود أو أفغانيين ؟إذا كنت تعادي إخوتك المؤمنين لأنهم ترك, وتحب النصارى واليهود لأنهم عرب, أعوذ بالله ممن أعماه الحظ وأضله الهوى.

كل مسلم يتعصب لجنسه فقط, أو للغته فقط بدون نظر إلى الدين –كما يتعصب اليهود والنصارى للغة العربية أو العرب – فذلك عدو لا نصلى عليه إذا مات, ولا ندفنه في قبور المسلمين, ولا نزوجه منا, لأنه مرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية. وأنت أيها الأخ التركي والفارسي, والهندي والبخاري, بل وكل من تفضل الله عليه بالإسلام واختارهم لتوحيده ولكتابه المجيد, اعلموا أن النصارى واليهود – ممن يدعون أنهم عرب – شياطين يسعون في جماعة المسلمين، ليفسدوا ببث روح التفرقةبين المسلم والمسلم بشيء ما أنزل الله به من سلطان، وهذا سلمان الفارسي من آل بيت رسول الله، كالعباس بن عبد المطلب وحمزة ﷺ، وأبو لهب الهاشمي مقطوع من هذا البيت الكريم، وبلال الحبشي من نسب رسول الله، وزيد بن حارثة جعله رسول الله ﴿ﷺ﴾ ابنه كالقاسم عليه السلام، وزوجه سيدة من سادات بني هاشم، ليس الأمر ياإخوتي بنسب الآباء ولغتهم.

أقول قولي هذا، وأنا – والحمد لله – حسني حسيني من والدى ووالدتي، وإنما الأمر ببذل النفس والمال والجاه والنسب واللغة واستبدال كل ذلك بنسب الإسلام ولغة القرآن وعزة الإيمان لنيل رضوان الله الأكبر، ولإعلاء كلمة الله، وإذلال أعداء الله،ولعلونا جماعة المسلمين في الأرض بالحق، حتى يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما، وتكون لغة القرآن أحب إلينا من لغة أنفسنا، ونسب الله ورسوله أحب إلينا من نسب آبائنا، إلا بالقدر الذي به نصل رحمنا ونتعارف ببعضنا.

دعوة إلى تعميم اللغة العربية :

ياإخوتي الترك : إن الله تعالى منحكم الإمامة ومكن لكم في الأرض، كل ذلك بالإسلام لا بغيره، وبسر روحانية رسول الله ﴿ﷺ﴾، ويعلم الله فيكم الخير ؟، فإن الله أعلم حيث يجعل إمامته، قال الله

تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1] وشكر الله تعالى واجب، فاشكروا الله بأن تجعلوا لغة القرآن لغتكم، ونسب رسول الله نسبكم، فيصبح جميع المؤمنين إخوة لكم آنسين بكم، يتفاهمون معكم ويأمنون جانبكم.

أنتم ياإخوتي الأتراك حفظتم حوذة الدين زمانا طويلا، ونشرتم الإسلام في بلادالروم،ولأسلافكم الصالحين تمسك بالقرآن، وعمل بالسنة، بها مكن الله لهم في الأرض،ولكن اشتغالهم بالجهاد وبالفتوحات لم يمكنهم من تعميم اللغة العربية، وجعل التفاهم بها، وها أنتم والحمد لله شعرتم بهذا النقص،وبالفراغ الواسع بينكم وبين إخوتكم المؤمنين،فسارعوا إلى تعليم اللغة العربية ياإخوتي، أيد الله بكم دينه، وجددالله بكم مجد المسلمين، وأذل بكم أعداء الدين، واجتهدوا أن تجعلوها هي اللغة التي يجب أن يتكلم بها كل مسلم مع المسلم أو مع غيره، ويجب أن يتكلم بها غير المسلم مع المسلم ومع غيره، في بلاد الإسلام، حتى تزول التفرقة التي أوجدها من ليسوا مسلمين في المسلمين، طمعا في إضعاف سلطان المسلمين وتمزيق المجتمع الإسلامي، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، يقول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2] وهذا نسب الله الذي يحكم به،وحكمه الذي أخبرنا به، فكيف نترك العمل بكتاب الله تعالى ونعمل بهوانا فنقول : المصري أخو المصري، والشامي أخو الشامي، والتركي أخو التركي، والفارسي أخو الفارسي؟.

إذا وفقنا الله وأعاننا بأن نجعل لغة القرآن هي اللغة التي يجب أن يكون التفاهم بها والتحرير بها؛ أكرمنا الله أولا: بالائتلاف والاتحاد حتى نكون كالجسد الواحد،ثانيا: يحفظ الله مجتمعنا من تداخل الأجنبي بيننا بالفساد بوجوه :

أولا: أنه لا يتكلم معنا إلا باللغة العربية، فلا يمكنه أن يدس دسيسة باللغة العربية لأنه يخشى أن ينفضح أمام المسلمين.

ثانيا: أن غير المسلمين – ممن يدعون أنهم عرب – لا يجدون لهم باب شر يدخلون منه على جماعة المسلمين ليفرقوهم.

---

(1) سورة البقرة آية 124.
(2) الحجرات آية 10.

ثالثا: أني لو قلت : أنا تركي، والآخر قال : أنا عربي، ونحن نتكلم باللغة العربية، لا تحصل عداوة بيننا لأننا نمثل رجلين، كل رجل من قبيلة يفتخر بقبيلته، لا دخل للدين في الموضوع كما يفاخر بنو هاشم بني أمية.

رابعا: يحصل خير عظيم بتعليم اللغة العربية وجعلها لغة التفاهم، لأن الشياطين الذين يدخلون بين المسلمين بالتفريق – بدعوى أن الخلافة تركية أو عربية – لا يجدون سبيلا، وكم عدو للمسلمين يسهر الليل ليكيد لهم بسبب اللغة التركية والعربية، ولو أن إخوتنا الترك محوا هذا الشر لجددوا مجد الإسلام، وردوا له ما كان في عصر سلفنا الصالح.

هذا ما يحصل من الخير في الدنيا، أما ما يحصل من النعيم المقيم يوم القيامة، فذلك بماينكشف للعقل من أسرار القرآن، وما يتجلى للروح من أنواره، وما يطمئن به القلب من أدلته وحججه، حتى ينعقد القلب على توحيد الله تعالى، والصدق في معاملته،والإخلاص لذاته الأحدية، بما يفهمه من كتاب الله، وما يمد به من روحانية رسول الله عند قراءة كلامه ﴿ﷺ﴾.

هذا، وإن الإفرنج يتعلمون اللغة العربية – ياإخوتي – لغرض دنيء من أغراض الدنياليكيدوا لنا، وقد نالوا ما نالوه بتعليم اللغة العربية، والأخذ بعمل السلف الصالح في الاستعمار والأخلاق والمعاملات، فإذا كان الإفرنج يتعلمون اللغة العربية – التي ليست لغة دينهم ولا لغة أوطانهم ولا لغة آبائهم – فكيف بنا وهي لغة كتاب الله، ولغة رسول الله، ولغة العلوم والفنون والآداب، ولغة أئمة الهدى من عجم وعرب، وقد فرض علينا تعليمها؟.

أنا – والحمد لله – على يقين أن إخوتنا الأتراك فقهاء في الدين، لا فرق بين التركي وصميم العربي في اليقين الحق، وربما كانوا على جانب من الآداب والاحترام للقرآن الشريف ينبيء عن كمال اليقين الحق، قد لا يبلغه إلا أهل المعرفة من غيرهم، فلم يبق سوى إيثار لغة القرآن ولغة رسول الله ﴿ﷺ﴾ على غيرها من اللغات، حتى يبرهنوا أنهم يؤثرون الله ورسوله، ولغة كتابه العزيز على أنفسهم وآبائهم ولغتهم، فينالون بذلك الرضا من الله تعالى والمعونة منه سبحانه، بالتمكين في الأرض، وقطع جراثيم الضلال الذين يسعون بين جماعة المسلمين بالإفساد، بسبب اختلاف اللغات، وبذلك يسدباب الفتنة فلا يحصل الخلاف لتركي وعربي، لأن أقباط مصر الذين يتكلمون باللغة العربية يحسبون بين المسلمين عربا، وكذلك نصارى الشام هم من أبناء الرومان، يدعون أنهم عرب لتكلمهم

باللغة العربية، ويتعصبون للعرب بسبب ذلك للإفساد،ولبث السم في الدسم، أعاذ الله جماعة المسلمين من التعصب لغير الحق، ومن التمسك بما يضر في الدنيا والآخرة، ولا ينفع في الدنيا ولا الآخرة، منحنا الله جميعا التعصب للحق ولو على أنفسنا حتى نكون مع الحق سبحانه، ويكون الحق معنا.

وقد تبين لنا أن اللغة العربية إنما نتعصب لها لا لأنها لغة العرب بل لأنها لغة القرآن الشريف، ولغة رسول الله ﴿ﷺ﴾، وكل شيء من الله ورسوله هو أحب إلينا من أنفسناومن آبائنا، حبا في الله وفي رسوله ﴿ﷺ﴾ وإيثارًا لله ورسوله على أنفسنا وعلى من سواهما وما سواهما، وليس ذلك بالأمر الصعب، لأن تعليم اللغة العربية إذا كان عن رغبة في الله سبحانه ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾ تيسر للكبير وسهل على الصغير، وقد لا تمضي شهور إلا والكل يتكلمون باللغة العربية مع الرغبة والحب، ولا أشك أن هذا الأمل إذا حققه الله تعالى أصبح المجتمع الإسلامي كما كان أولا، لهم السيادة والسلطان، والمنعة والقوة والتمكين في الأرض بالحق.

كل الذي قررته حقائق بديهية، لا أشك أن كل من تكلم بغير اللغة العربية منا يشعر في نفسه بنقص، لا أقول : في كمالياته، بل في ألزم ضرورياته التي بها صحة دينه وسعادته في الدنيا، وراحة قلبه، وذلك لأن المسلم الذي يتكلم بغير لغة القرآن الكريم يجهل دينه وما به من الكمالات والأخلاق والمعاملات التي بها ساد سلفنا الصالح، ويلزم على ذلك أن الصناعات والتجارات والفنون والحرف التي حث عليها القرآن، وأمرنا بالمسارعة إلى عملها، والعمل فيها للدين تهمل، أو تكون كتبها بغير لغة القرآن الشريف، ويختص بها أعداء القرآن، وهي ضرورة لحفظ ديننا، وراحتنا في الدنيا، فيحصل الضعف لمن تركوا التكلم بلغة القرآن في دينهم ودنياهم، وتنحصر العلوم القرآنية — التي تتجاوز الألف علم عدًّا — في غير أهل الإسلام.

كل ذلك يحصل لأن المسلمين يتفاهمون بغير لغة القرآن الكريم، والمسلمون مذ كانت لغتهم لغة القرآن الكريم، كانوا لا يهتمون إلا بما هو خير لجميع المسلمين، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يوقظ قلوبنا جميعا من نومة الغفلة ورقدة الجهالة، ويبصر العربي منا بتقصيره في التعصب للحق وتعصبه للغته بدون ملاحظة أنها لغة القرآن، وينبه إخواننا بالنقص الناشيء بترك لغة القرآن وتعصبهم للغتهم، عنادا لأهل الجهالة من المفسدين الذين يثيرون شحناء المفاسد بيننا، لإيقاع العداوة بين الأخ وأخيه في الله

تعالى، بعد أن اتصل نسبنا بالله سبحانه وبرسوله ﴿ﷺ﴾ فصرنا إخوانا في الله كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [1] وقد تمكنوا من قلوب فريق من المسلمين، حتى شغلوهم بعداوة بعضهم، وبعمل المكايد لبعضهم، فالتفتوا عن العمل الصالح من تقوية الثغور، وفتح دور الصناعات لإعداد العدة وجمع القلوب للعدو، ونشر العلوم القرآنية بين جماعات المسلمين، ونشر الدين بين العالم بالطرق التي سلكها سلفنا الصالح، حتى يسعد المسلمون بقوة السلطان في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة، ولكن ترك الجماعة الاقتداء بالسلف، وشغلهم أهل الفساد، حتى حصل ما لا يخفى على مسلم.

أسأله سبحانه أن يجمع قلوب المسلمين بروح منه سبحانه، لتقوى الرغبة فيما عند الله تعالى، وتشتد محبة المسلم للمسلم، ويسارع كل مسلم في خير إخوته المسلمين، حتى يعود الإسلام كما بدأ سر قوله ﴿ﷺ﴾ :(بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ) [2]،ومعنى الحديث ظاهر لمن ألقى السمع وهو شهيد، وقد قال تعالى :﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [3]،وسنة الله تعالى في عباده لا تبديل لها، وسيجعل الله للمسلمين التمكين في الأرض، ويظهر دينه على الدين كله كما وعد سبحانه، ولا تبديل لكلمات الله، وصلى الله علىسيدنا مُحَمَّد وآله وسلم، آمين.

شفاء مرض التفرقة:

هذا المرض الجاهلي – وهو العصبية للآباء والأجداد لتأسيس ملك أسس على الظلم والجور – هدم الإسلام، هذا العماد الباطل الذي جعل المجتمع الإنساني كغابة جمعت أنواع الوحوش والحيوانات، يفترس القوى الضعيف، حتى بلغ الظلم مبلغا عبد الإنسان فيه الإنسان، فلما أن أشرقت أنوار الإسلام على العالم، محت تلك الضلالة،فجعل نسب المسلمين هو الإسلام، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [4]، وقد ورد : (كل نسب وكل حسب مقطوع، إلا نسبي وحسبي). ظهر الحق للمسلمين فتمسكوا به ورفضوا ما سواه، فكان الله سبحانه معهم ولهم،وصار

---

(1) سورة الحجر آية 47.
(2) رواه أبو هريرة وتكملته (غريبا فطوبى للغرباء).
(3) سورة الصف آية 9.
(4) سورة الحجرات آية 10.

المسلمون جميعا جنسا واحدا، الله تعالى ربنا، وسيدنا مُحَمَّد ﷺ نبينا، والقرآن إمامنا، والإسلام ديننا ووطننا ونسبنا، وقمنا لله مخلصين له الدين، لنخلص العالم أجمع من ظلمات الجاهلية، وضلالات أهل الكتاب، وألوهية الجبابرة، فأسرع العالم أجمع إلى هذا المجد بعد أن علموا أنه الحق اليقين، انتشر هذا النور بسرعة أدهشت العقول، فكان أسرع من انتشار أشعة الشمس في أفقها، فأذل تيجان الجبابرة، محا كسرى وقيصر وهرقل وملوك اليمن وجبابرة جاهلية العرب، وطغاة الهند والصين، وظلمات آسيا وأفريقيا، وجهالات الإقيانوسية، وعم النور من المسلمين غيرهم من أهل الذمة، ودام مدة التمسك بهذا النسب ورفض التعصب للجنس.

حتى فتحت الدنيا فتنافسوها فتفرقوا شيعا، وسرى هذا المرض في أعضاء المجتمع، بعد انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين، فهاجر رجال بني أمية إلى المغرب، وإلى أواسط أفريقيا في السودان، فتكونت مملكة في الأندلس، وأخرى في السودان وهمملكة الفتح، وتعدد الخليفة، فتنبه الإفرنج للحملة عليهم، ولكن قوة الإيمان في قلوب المسلمين أضعفت مساعي الإفرنج.

اشتد هذا المرض حتى استقل كل عامل بإقليمه، وقوى عامل الحسد والطمع، فصارت الجيوش الإسلامية – التي كانت تحمل النور والتوحيد لجميع الأمم – معاول للتفرقة، وآلات لهدم المجد الإسلامي، ولو أن العالم أجمع قاموا لحرب المسلمين – وهم مسلمون حقا – لنصرهم الله تعالى عليهم، ولكنهم التفتوا عن الله تعالى فالتفت الله عنهم.

أنتهز الإفرنج تلك الفرصة فأثاروا ثائرة الحرب الصليبية لمحو النور الإسلامي, فهب المسلمون من كل أرض هبوب قواصف الريح، فمحوا طغيان أهل الظلم،وأخرجوهم من الأراضي الإسلامية (مصر وسوريا)، وجدد الله للمسلمين مجدهم، فقامت الدولة العثمانية لخدمة الإسلام في آسيا وأوربا، وأخضعت ملوك أوربا، صارت آسيا وأفريقيا والبلقان من أوربا مملكة إسلامية.

ومكث المجتمع الإسلامي ينشر الأنوار، حتى غدر الأسبان بدولة المسلمين في الأندلس, وسلبوا فنونها وصناعتها, وانتشرت في أوربا تلك العلوم والحضارة, وطمع الإفرنج في الشرق عندما اشتغلت الدولة العثمانية بحوادث داخليتها, فأرسلوا الفساد علىأيدى البغاة وباعة الخمر والميسر, وأخذوا في الخبث والخديعة حتى تمكنوا من إفساد العقائد والأخلاق, واستحسن من لا خلاق لهم عوائدهم, حتى أعادوا الجاهلية الأولى وهي الجنسية, فانتشر هذا المرض حتى عادى المسلم أخاه, وفارق من كان

يتولاه ولا غرابة, فإن أمة الترك والفرس – وهم أبناء رجل واحد –تعصب الترك لطهران والفرس لإيران وهما أخوان شقيقان, كل ذلك من نار الجنسية وشرار إفساد أوربا, ثم تعصب كل مجتمع لاسم بلده, واشتدت تلك الحمية حتى ضرب المسلم وجه أخيه المسلم, وهذا يقول : تونسي, والآخر يقول : مصري, وغيره يقول : سوري, وعراقي, وعربي, وتركي, أو أفغاني, وهندي, كل ذلك بسبب ترك النسب الديني, خدم رجال الترك الإسلام والمسلمين فأثبتت نهضتهم الأخيرة نهضة السلف الأولى, فكانوا للدين كالروح التي سرت فأحيت الجسد, وأعادت له العافية الأولى.لم تطفأ نار أوربا عن الشرق, ولكن قامت تبث الدسائس, وتعلن الحروب على الخلافة العظمى, طورا مجتمعة, وأخرى متفرقة, حتى كانت حروب البلقان.

ولم تكتف بها, بل شغلت طرابلس واليمن والشام ومصر والعراق والحجاز وبلاد العرب بالفتن والأطماع والخروج على الخلافة, بغضا للشرق وأهله, وطمعا في محوالخلافة الإسلامية, والله غالب على أمره.

أيد الله المسلمين وعزز رجال الخلافة, فقاموا لله ورسوله ولوطنهم لدفع العدوالظالم, وليس من العجب أن تظهر بعض دول أوربا ما تكنه من العداوة والبغضاء للإسلام والمسلمين, ولكن العجب أن تقوم فئة من المسلمين فيخرجون على الخليفة مسارعين في أعداء الله !! يضرب المسلم وجه أخيه !! ويزعم باطلا أنه عربي وأنه شريف هاشمي !! وهي دعوة لا حجة عليها, انظر إلى الحجاز وخروجه على الخلافة وسكونه إلى أعداء الله ورسوله, وإلى أهل الشام وخلافهم على رجال الخلافة, ومعاونتهم لأهل الحرب, وانظر إلى اليمن وإلى القائم فيها على الخلافة, وهو يدعي شرف النسب, وإلى العراق وإلى المسلط عليها, السال سيفه على المسلمين ليؤيد سلطان المسلمين على المحاربين, الذين غرتهم الحياة الدنيا فأعمتهم عن الحق ومن يحبه سبحانه, فوالوا من عاداه وحاربوا من والاه, وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

لا – ومن أنزل القرآن وحفظه, وأرسل حبيبه مُحَمَّدا ﴿ﷺ﴾ وأيده –, لينصرن الله من ينصره ورسله بالغيب كما هو وعده, وقال الله تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [1], وقال سبحانه

(1) سورة الروم آية 47.

: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيد ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [1], وقال تعالى ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [2], وقال تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [3]. وقد أظهرت تلك الحوادث أعظم معجزة لرسول الله ﴿ﷺ﴾ في هذا الزمان, قال ﴿ﷺ﴾ : (ليضربنكم عليه عودا كما ضربتموهم عليه بدءا) ومعنى هذا الحديث أن العرب ضربوا الأمم جميعهم لإعلاء كلمة الله ونجاة العالم من الكفر ومن ظلم الظالمين, ثم ارتدوا في هذا العصر عن الحق, ونصروا الباطل, وقام أنصار الله تعالى من الترك, ومن والى الله ورسوله معهم من الفرس والأفغان والهند والقوقاز وأذربيجان, حتى ظهر الحق للهندوس عُبَّاد الشمس والبقر, فسارعوا لنصرة الخلافة ورجالها, وفق الله هؤلاء المسلمين وهم من الترك والعجم, لأن يضربوا العرب بالسيف ليرجعوا إلى العمل بأحكام الإسلام, فهم الذين نشروه بينهم, فصدق رسول الله, وقامت الحجة أن النسب هو الإسلام, وأن النسب الطيني لا قيمة له, وكيف لا ؟ إنا لنرى المغرورين بالنسب الطيني قد استعملهم أعداء الله تعالى في إطفاء نور الله ورسوله, إلا من عصمهم الله تعالى.

وها هي المجتمعات الإسلامية في كل أرض, فترى المدعين الشرف في السودان, وفي مصر, وفي الحجاز, وفي الشام, وفي العراق وغيرها من المجتمعات, هم المسارعون فأعداء الله تعالى, المعينون على هدم دين الإسلام, والمسارعون إلى إطفاء نور الحق بأفواههم, ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

فيا رجال الترك ومن أقبلوا على الله ورسوله معهم : إنكم الآن تقومون بعمل قام به أصحاب رسول الله والسلف الصالح معهم, فاشكروا الله الذي أقامكم مقام أصحاب نبيه ﴿ﷺ﴾ من الأنصار, وانظروا إلى زهرة الحياة الدنيا وزينتها بعيون الإيمان وبأحداق البصائر, ليكون الله تعالى معنا دائما, ولنا دائما، ويعيد بنا مجد سلفنا الصالح, ويمكن لنا في الأرض، وأعيدوا النسب الإسلامي بمحو التعصب للجنسية، حتى يكون كل مسلم في أى أرض أخا لكم من والدكم الرءوف

(1) سورة الإسراء آية 18.
(2) سورة الممتحنة آية 1.
(3) سورة المجادلة آية 22

الرحيم ﴿ﷺ﴾, فإن الله تعالى يقول :﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [1], فلا تجعلوا لكم والدا غير رسول الله ﴿ﷺ﴾ ولا أما غير أمهات المؤمنين, ولهذا النسب الشريف فغاروا, وعليه فحافظوا تفوزوا بالتمكين في الأرض في الدنيا, وبجوار رسول الله يوم القيامة, واحذروا ياإخوتي, فأوربا دست السم في الدسم, فنشرت بين المجتمع الإسلامي التعصب للجنسية واللغة القومية, ثم هجمت هجوم الجبابرة والطغاة فقطعت الأيدي والأرجل من المجتمع الإسلامي, وخدرت القلب والرأس منه بغضا في الإسلام ومناوأة لأهله. فأعيدوا ياإخوتي أعزنا الله وأيدنا بروحانية رسول الله هذا المجد, وهو اتصال نسبنا بنسبه, واعلموا أنه قال ﴿ﷺ﴾ : (آل مُحَمَّد كل تقي) وقال : (سلمان منا أهل البيت) وقال : (أخرج الكفر أبا لهب من نسبي), وقد نفى الله نسب ابن سيدنا نوح وحكم عليه بالكفر.

أعيدوا ياإخوتي ما كان لأنصار رسول الله من الغيرة للإسلام, ونسيان الجنسية, وأنتم تعلمون من هم قبل الإسلام, كان الرجل يقول : أوسي, والآخر يقول :خزرجي, فأصبحوا بالإسلام إخوانا يقول كل واحد منهم : أنصاري أنا, وقد أثنى الله تعالى عليهم بقوله : (يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) [2].

فسارعوا لتكونوا أنتم هم عند الله تعالى, وعند رسوله ﴿ﷺ﴾, وعند العلماء بالله تعالى, وإني لأطمع من الله تعالى أن يمنحكم الفضل العظيم, وأن يظهر بكم دينه على الدين كله.

نداء إلى العرب :

ويا أيها العرب : إن الله تعالى نشر دينه على أيديكم وألسنتكم, فمنكم صدر الحق وبكم انتشر, والبذرة إذا غرست في الأرض أخرجت بذورا كثيرة من نوعها, فلو غرس الفلاح بذرة قمح فخرجت شعيرا, أينسبها إلى القمح ؟ أو يضعها في مخزنه ؟لا, إذا تقرر ذلك فليس هؤلاء بعرب وليسوا من البذرة الهاشمية, والله أعلم بهم, قال تعالى : ﴿إِنَّهُ ليس من أهلك إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [3] ولو كان الولد من نوح عليه السلام لكان صديقا نبيا, أو كان وليا تقيا، تداركوا يارجال العرب فإنكم تلقون

---

(1) سورة الأحزاب آية 6
(2) سورة الحشر آية 9
(3) سورة هود آية 46

بأنفسكم في هاوية سحيقة بها تغضبون رسول الله, وتهلكون أنفسكم وأبناءكم. متى كان عدو رسول الله محبا للمسلمين ؟! متى كان المنكر لرسالته ﴿ﷺ﴾ مواليا للمسلمين ؟! غرتكم الحياة الدنيا وزينتها, ونسيتم الآخرة ونعيمها وعذابها, قال تعالى : ﴿وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [1].

وأنتم أيها المنتسبون للشرف, الذين أحبهم المسلمون لنسبهم لآبائهم الصالحين, قد استوجبتم لعنة الله تعالى لغروركم بزينة الدنيا وزخارفها, والسيادة فيها والمسارعة في أعداء الله, هؤلاء أهلكوا أنفسهم وأهلكوا من والاهم, وستقوم القيامة ولديها يكونون كما قال الله تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾[2].

وأنتم ياأيها الزعماء, تعلمون أن الله تعالى يقول : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [3] ويقول تعالى : ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [4] ويقول سبحانه : ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين ۞ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [5], ويقول : ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [6].

فاتقوا الله, فإن الدنيا زائلة ونعيمها فان, وتيقنوا أنكم مسئولون عن أنفسكم وعن من تقودونهم, فاهتموا بمحو البدع والضلالة, وإحياء السنن والهداية, لتنالوا الحسنيين في الدنيا والآخرة إن ساعد القدر, أو تفوزوا بالحسنى الدائمة في الآخرة, واحذروا أن يقودكم الهوى وحب العاجلة فيتمكن العدو من الأمة, واعلموا أن النصر من الله, وأن الظفر مع الصبر, وأن الله ينظر إلى القلوب, فعمروها باليقين الحق والثقة بما عند الله تعالى.

---

(1) سورة آل عمران آية 185
(2) سورة البقرة آية 166
(3) سورة المائدة آية 2
(4) سورة هود آية 113
(5) سورة آل عمران آية 133- 134
(6) سورة آل عمران آية 103.

تنبيه للعلماء :

وأنتم أيها العلماء ورثة الأنبياء, وأئمة الهدى, ومصابيح الدجى, والمسئولون يوم القيامة عن أمانة الله, وميراث رسول الله, كشف لكم العلم الحقيقة.

هل بين لكم العلم بأن الدنيا دار البقاء, أو بين لكم أن النعيم في الآخرة بمعصية الله ؟ ومجاراة أعداء الله ؟ أو نسخت الشريعة ؟ أو صرتم أهل فترة ؟ يامصابيح الهدى :

ما لكم أظلمتم ؟ ويأنجم البيان : مالكم هويتم ؟ هل بعد العلم اليقين تفردون الدنيا بالقصد؟ وهل بعد البيان والتعيين تسكن نفوسكم إلى محو السنة وتعزيز البدعة ؟!اشرحوا لي قوله تعالى : ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (1) وقوله تعالى : ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (2).

ياعلماء الدنيا، وعبيد الأمراء، وأنصار أعداء الله، اسمعوا بقلوبكم قوله تعالى :﴿وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (3) وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ (4).

اعملوا – منحني الله وإياكم يقظة القلوب — أن الله ما ائتمنكم على أمانته، فأقامكم ورثة لحبيبه ومصطفاه ﴿ﷺ﴾، إلا لتحفظوا رسول الله في أمته، وتنصروه بإحياء سنته،وتدبروا قوله تعالى : ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (5).

هلموا بنا نتوب إلى الله، ونرجع إليه، قبل أن ينزل هازم اللذات، ومفرق الجماعات، ويقفل باب التوبة، واعلموا صدق وعد الله تعالى في قوله سبحانه : ﴿حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ

(1) سورة المائدة آية 52.
(2) سورة هود آية 113.
(3) سورة يونس آية 7.
(4) سورة فاطر آية 28.
(5) سورة التوبة آية 62.

وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾[1] وقدظهر مدلول هذه الآية في أوروبا وأمريكا واليابان، وظهرت علامات الانتقام منهم جميعا لإصرارهم على الظلم والطغيان، قال ﴿ﷺ﴾ :﴿إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) [2].

وإني أسال الله تعالى، أن يمنحنا العلم النافع، والقلب الخاشع، والنور الساطع، ويجدد بنا سنن نبينا ﴿ﷺ﴾ إنه مجيب الدعاء، آمين.

توجيه للنشء :

أيها الشبان الناشئون الآن، والرجال المسئولون غدا، اعلموا أن لكم مجدا تليدا، شاده أسلافكم الكرام بالعمل بوصايا رسول الله ﴿ﷺ﴾، حتى ملكوا الأرض طولها والعرض، ولكن أهمل آباؤكم في واجب السنة، فتفككت أعضاؤهم، وتمزقت مجتمعاتهم، وأذلهم العدو الخداع، وقام كل واحد يقول : نفسي، وجهلوا أنهم في سفينة لا نجاة لهم عليها إلا بإقامة حدود الله، والعمل بسنة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، ولو أن واحدا منكم جهل موقفه في هذا الوجود، ودعاه العطش إلى خرق السفينة ليشرب من تحت رجليه، ولم يمنعه الراكبون فيها بالقهر، هلك وأهلكهم جميعا، فكذلك أنتم ياأولادي، يلزم أن تحافظوا على السفينة بالنفس والنفائس، من أن يهمل واحد من المجتمع الإسلامي فيمكن العدو.

ياأبنائي، إن آباءكم أهملوا فأضاعوكم أنتم، وأنتم رجال المستقبل، وهم رجال الآخرة لكبر سنهم، فأعزوا أنفسكم بالعمل بسنة رسول الله، وارفعوها عن أن تتدنس بما حرمه الله، وقوموا لله ولرسوله ﴿ﷺ﴾ بالإخلاص، ولأوطانكم العزيزة التي هي الإسلام، والأرض التي فتحها المسلمون بدماء أصحاب رسول الله، فاحفظوها وزيدوها كما فعل سلفكم الصالح، واعتقدوا أن الله تعالى يقول : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [3].

---

(1) سورة يونس آية 24.
(2) رواه أبو موسى وتتمته ثم قرأ : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد).
(3) سورة المنافقون آية 8.

ثانيا: إجماع المسلمين على إمام واحد

الوسيلة الثانية : هي إجماع المسلمين على إمام واحد، بحيث أن كل من قام يدعو إلى نفسه للبيعة بالخلافة مع وجود الإمام القائم يعد من الخوارج، ويجب أن يقتله المسلمون لأنه يعد ساعيا في الأرض بالإفساد، هذا كله مادام الإمام لم يعمل عملاً يخرجه عن الإسلام، بإباحة ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، أو يترك ثغور المسلمين ليتمكن منها العدو، لأنه إن حصل منه ما يخرجه عن الدين، سقط حقه على جماعة المسلمين، وخرج من عهد الله، ومن عهد رسول ﷺ والواجب على أهل الرأي من المسلمين أن يخلعوه ويبايعوا غيره.

والخارج عليه- مادام قائما بقدر استطاعته –كلب من كلاب النار، يعني أنه يطلب دنيا لا دينا، ويسعى في حظ يفرق به جماعة المسلمين.

متى رضي المسلمون بوجود إمامين في عصر واحد – مهما اتسع الملك –كان ذلك موجبا لغضب الله، وإضعافا لسلطان المسلمين، وقد سبق لى الكلام على الإمام مستوفى في كتاب : (النور المبين) فمن أراد العلم به فليراجعه في موضعه من الكتاب.والله تعالى ينبه إخواني المسلمين للعمل بالكتاب والسنة، وإيثار ما عند الله على ما في الدنيا، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم..

ثالثا : إقامة حدود الله

هذا الموضوع أهم المواضيع التي تجب العناية بها لأمرين عظيمين :

الأمر الأول : أن سعادة المسلمين في تلك الدار الدنيا، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وراحة قلوبهم، متوقف على إقامة حدود الله، بل وصفاء أفكارهم التي بها العمل في الدنيا للآخرة، لأن الفرد إذا عمل في التفكير للمتعدى عليه، وأذية المبيح لعرضه وماله، أهمل العمل في الدنيا للآخرة – من اختراعه وتحصيل علوم الصناعات والفنون – ومتى اشتغل كل فرد من المسلمين بتلك البلايا، أصبح المجتمع كالجسد الذي اعتورته الأمراض في كل أعضائه، فصار في حاجة إلى الممرض والطبيب والمعين، بعدأن كان قاهرا لأعدائه، عاملا لنفع أعضائه المتممة له.

هذا بعض ما يصيب المجتمع بترك إقامة حدود الله في الدنيا، وكفى بذلك شرا، وذلك لأن الحكيم القادر خلق الإنسان مفطورا على الحرص، وشغفا بنيل حظوظه وأغراضه، فهو أجرأ من السبع عند نيل حظ من حظوظه، لأن السبع إنما يجرأ بلا فكرولا روية، فقد يتقى ويتحفظ من شره، وأما الإنسان فإنه عندما يدعوه حظه يقوم بتنفيذه بقوتين – قوته البدنية التي هي كالسبع، وقوة التدبير بفكره – فلا يمكن أن يدفع شره، ولذا فالحكيم القادر جعل حدوده من أنواع القصاص والتعذير والتأديب، لكبح جماح النفوس الباغية الطاغية، وجعل أنواع العبادات والقربات لتزكيتها وتطهيرها بعد كبحها.

فإذا أهمل المسلمون في إقامة حدود الله وإقامة شعائره ظهر الفساد في البر والبحر،وصار المجتمع كمجتمع الحيوانات المفترسة في غابة، ووكلهم الله إلى أنفسهم، ومكن منهم عدوهم، وحبس عنهم رزق السماء،فصاروا أذلاء بعد العز، أعوذ بالله من قوم يضيع الحق بينهم.

الأمر الثاني: أن إهمال إقامة حدود الله وترك القيام بشعائر الله تجعل المؤمن ينقص إيمانه، حتى قد يزول من قلبه، فيخرج من الدنيا بغير إيمان – نعود بالله من ذلك –.

قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [1] وقال ﷺ : (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشر بها وهو مؤمن) [2] الحديث. وقال ﷺ : (تارك الصلاة ملعون)، فوصف الله تعالى المؤمنين بما به يكونون مؤمنين، ووصف رسول الله ﷺ المنافقين الذين لا إيمان لهم بما به يكونون منافقين، وقد بين الله سبحانه وتعالى صفات عباده المؤمنين في آية جمعت ما لا يكون المؤمن مؤمنا إلا به، وهو قوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [3] وقال الله تعالى:﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ

(1) سورة الأنفال آية 2-4
(2) رواه البخارى ومسلم
(3) سورة الفرقان آية 63

ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[1] وقد بين الله تعالى في القرآن الشريف أن الشرك ظلم عظيم بقوله تعالى :﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [2].

لما كان المتعدي حدود الله قد ظلم نفسه، فكأن الآية تشير إلى أن المتعدي حدود الله مشرك، وأن التظاهر بالشرك ظلم عظيم، والفرق بين المتظاهر بالشرك والمتعدي حدود الله، أن المتظاهر بالشرك كافر مخلد في نار جهنم, والمسلم المتعدي حدود الله وسع الله له الأمر في أن يتوب إليه, فإن تاب التوبة النصوح بشروطها التي بينتها في كتاب : (أصول الوصول) فذلك برهان على مغفرة الله له, وإن مات على غير توبة –والعياذ بالله – فأمره مفوض إلى ربه, إن شاء أماته كافرا, أو شاء أماته مسلما, وعذبه على خطاياه أو غفر له, وأدخله الجنة, لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

الإهمال في إقامة حدود الله والقيام بشعائره موبقة للنفوس, ماحقة للإيمان, مجلبةلغضب الله, موجبة لعذاب الله إن لم يغفر.

من الذي يقيم حدود الله ويقوم بشعائر الله ؟

أولا : الفرد المسلم :

أما أولا وبالذات : فكل فرد من المسلمين واجب عليه أن يسعى في جلب الخير لنفسه, ودفع الضرر عنها, ولا خير أعظم من العمل بكتاب الله والمحافظة على سنة رسول الله لأنه بذلك يسعد السعادتين وينال الخيرين, ويسود في الدارين ولو عاش فقيرا, فإن العمل بالسنة والكتاب, يشرح الصدور وتطمئن به القلوب, ويريح الفكر والبدن, ويجعل الإنسان آمنا في سربه ميسرا له قوته, معافى في بدنه, وهي سعادة الدنيا. محبوبا في قومه, موسعا له في قبره, محمولا على نجائب العناية ورفارف الحنانة والرأفة الإلهية, وهي السعادة في الآخرة.

ومثل هذا متى ينقبض صدره, أو يضيق رزقه, أو يتألم جسمه, أو يهان بين قومه, أو يفتقر إلى شرار الخلق, أو يذل أبناؤه بعده ؟ وقد قام بما جعل الله تعالى معه في حياته الدنيا بالهداية والتوفيق, وفي حياته البرزخية بالبشائر والرحمة, وفي حياته الأخرى بالقرب ومشاهدة الوجه الجميل, والنعيم

(1) سورة الطلاق آية 1
(2) سورة لقمان آية 13

المقيم, وجعل الله تعالى خليفة عنه على أبنائه وأهله, ومن جعل الله خليفة عنه على أبنائه وأهله لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين, قال الله تعالى في تحقيق ما قلنا : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] وقال الله تعالى في خلافته عن وليه على أبنائه بعد موته : ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [2]. هذا بعض ما يمكن أن يسطر على الأوراق, أو تنطق به الألسنة من الخير الذي يناله المحافظ على حدود الله, القائم بشعائر الله, ونعمة الله لا تحصى على الأفراد العصاة أوالكفار, من الإيجاد والإمداد والعناية, فكيف بنعم الله على العبد المطيع الولي ؟ لا يعلم نعم الله على العبد المطيع إلا الله.

فالواجب على كل فرد من أفراد المسلمين – ولو أهمل السلطان إقامة حدود الله والمحافظة على شعائره – أن يحافظ على العمل بالسنة والكتاب, محافظة على نفسه من أن يقع في هوة نار, أو في جب تنهشه الأفاعي, وليسارع إلى العمل بالسنة والكتاب, كما يسارع إلى أن يملك أرضا ذات أنهار جارية وحدائق غناء ونسيم عليل بليل وأمن وأمان وإطلاق وسلطان, ينالها بلا عناء ولا تعب فادح, ولا بذل مال ولا نفس, كيف تكون مسارعته إليها ؟ الجواب أكله إلى نفسه.

فالواجب على كل مسلم أن يقوم بنفسه لنيل ما به سعادتها في العاجل والآجل, بكل ما في وسعه, وليعتقد أن إهماله هلاك لنفسه, وتساهله خسران عليه, قال تعالى :﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [3]

ثانيا : السلطان :

أما الثاني الذي يقوم بحدود الله تعالى, وإن كان في ظاهر الأمر هو الأول, كما قال سيدنا عثمان بن عفان : (ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن) فهو السلطان القائم بالخلافة عن ربه, وعن رسول الله ﴿ﷺ﴾, المنفذ لأحكام الله, المقيم حدود الله, المحافظ على ثغور المسلمين, الذي ينام الناس ويسهر, ويرتاح الناس ويتعب, ويأمن الناس ويخاف, ويشبع الناس ويجوع ليستريح يوم القيامة, ويشبع ويأمن ويتنعم بنعيم لم يتنعم به أحد غيره, وهو الأمان الذي يكبح النفوس عن استرسالها فيما فطرت

(1) سورة يونس آية 62
(2) سورة الكهف آية 82
(3) سورة النور آية 18.

عليه من المفاسد والأهواء, ويعين المظلوم, يؤم الناس في صلاتهم, ويطوف عليهم فليلهم, يعود مرضاهم, ويشيع جنائزهم, ويذكرهم أيام ربهم, فيكون إماما للمتقين, وسراجا منيرا لرعيته المطيعين, وحربا على العصاة المارقين, وأعداء الإسلام والمسلمين المظاهرين, هذا هو الذي يقيم حدود الله, وعدل ساعة منه خير من أربعين سنة مطرا, فإن عدل ساعة ترضي الله تعالى ورسوله, وتجعل المجتمع في سرور وأمان وائتلاف ووفاق, فتكون قلوبنا مجتمعة والله معنا, ومتى اجتمعت القلوب كان الله معنا فحقق وعده سبحانه الذي وعدنا به بقوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾[1]

وقد أنجز وعده سبحانه – بمزيد فضل منه – لسلفنا الصالح ﷺ, فمكن لهم في الأرض تمكينا أذل لهم جبابرة الأرض وملوكها, ونشر بهم دينه بين عباده الذين سبقت لهم الحسنى منه سبحانه, وكان كل من على ظهر البسيطة في وسعة من الرزق وأمن على النفس والمال والأهل والولد وعافية في الأبدان, لا فرق بين المسلم والذمي, فللذمي من الحقوق الاجتماعية ما للمسلم وزيادة.

أما قولنا وزيادة, فلأن المسلم كان يطالب بزكاة ماله وحماية الثغور, وبجهاد العدو, وبحقوق لإخوته المؤمنين في ماله ونفسه – غير الواجب – وبالقيام بشعائر الله, وكان الذمي لا يطالب بشيء غير الجزية التي تؤخذ منه ليساعد بها على كبح جماح الظالم وإقامة العدل بين الناس، ولحفظ الأنهار وجسور الترع، ولرجال الخفر والحراسة،ولتأسيس المستشفيات والملاجيء للأيتام والعجزة والشيوخ ولتجنيد الجند، وهذا القدركان ينفق على أهل الذمة أضعاف أضعافه من بيت مال المسلمين، فكان هذا العمل من العدل والمساواة وإقامة حدود الله والعمل بسنة رسول الله، تمكينا من الله لعباده المسلمين.

والإهمال في إقامة حدود الله وإحياء شعائر الله مؤد إلى ظلم العباد، وخراب البلاد، وغضب الله عليهم، ولا ينظر الله إلى جماعة تعدوا حدوده، وأماتوا سنته، وعملوا بغير كتابه، وقوم لا ينظر الله إليهم أوقعوا أنفسهم في مقت الله وغضبه، أعوذ بالله من موجبات سخطه.

---

(1) سورة النور آية 55.

السلطان ظل الله في أرضه،وسيفه المسلول على أعدائه، وروضه الزاهر داني الجنى لأوليائه، وهو — إذا كان كما وصفنا — القطب الغوث الفرد الجامع، محل نظر الله إلى عباده، وميزاب فضله العظيم على أحبابه، نسأل الله تعالى أن لا يخلي الأرض من قائم له سبحانه وتعالى بحجة، حافظ لحدود الله، قائم بشعائر الله سبحانه، وأن يجدد سنة نبيه ويعلي كلمته، ويفتح كنوز فضله وخزائن جوده وأبواب نعمه الواسعة، أنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وسلم.

ثالثا : المجتمع:

الثالث الذي يقوم بحدود الله،وهو الحاكم على الخليفة الأعظم, وممده, وبيده خلعه وبقاؤه ويمكنه أن يعصيه ويطيعه, وهو المجتمع, وعليه أعظم المسئولية, وبتهاونه – ولو مع الإمام — تحصل له البلية, فالإمام والمجتمع مثلهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالنسبة التي بها دور أسفل, ودور أعلى, فالذين في العلو يشربون من النهر, والذين في السفل يتناولون الماء من أهل العلو, فلو قام واحد من أهل السفل وأخذ الفأس وأرادأن يخرق السفينة لتناول الماء من النهر أهلك الجميع. فعلى المجتمع أن يتحد ويتضامن على تنبيه السلطان لخير الجميع أو قهره على ذلك, فإن أبى خلع, وإنما ينبه إذا أهمل في حدود الله سبحانه, أو أهمل في شعائر الله, أو سعى في الأرض بالفساد.

وإنما يقوم بهذا العمل المجتمع الإسلامي الذي تجمل بجمال أهل المدينة المنورة, عقيدة وعبادة وخلقا ومعاملة, لا مطلق مجتمع, والواجب على المجتمع الذي لم يتكمل بهذا الكمال أن يبتدئوا بتزكية نفوسهم, حتى إذا زكت ولى الله عليهم خيارهم, كما قال ﴿ﷺ﴾:﴿كما تكونوا يول عليكم﴾ [1] أسأل الله تعالى أن يمنحنا الهداية والتوفيق لما يحب, وأن يولى أمورنا خيارنا, إنه مجيب الدعاء.

وفى الحقيقة ونفس الأمر, إذا صلح المجتمع صلح بصلاحه الخليفة والولاة, لأن المجتمع الصالح يصلح من تولى أمره, أسأل الله تعالى أن يمنحنا الهداية والتوفيق لما يحب, وأن يولي أمره لمن كان مصلحا, وأن تكون عناية الله محيطة به.

---

(1) رواه الديلمي في مسند الفردوس.

رابعا : تربية المسلمين التربية الدينية :

الوسيلة الرابعة – وهي كون تربية المسلمين مؤسسة على التربية الدينية – بحيث يكون التعليم أولا قاصرا على تعليم الإيمان ثم القرآن, ثم يكون تعليم الصناعات, أو الزراعة أو التجارة, أو تعليم فنون الجهاد وتدبير المدن وسياسة المجتمعات, كله مؤسس على الدين, ويكون تعليم تلك الفنون لأنها وسائل لإعلاء كلمة الإسلام وحفظ ثغوره وجلب الخير لأهله وقوة سلطان المسلمين.

هذا الموضوع – وإن أخرناه في الوضع – إلا أنه مقدم بالطبع, لأنه الأساس الذي يعد كقطب الرحى التي تدور حوله, وذلك لأن النشء هم الأمة في الحقيقة, وهم الرجال العاملون في نفس الأمر, وعلى قدر تربيتهم يكون مستقبل الدين والدنيا, وبقدرالعناية بهم يكون نيل الخيرات, وكذلك بقدر إهمالهم يكون ضياع الدين والدنيا والآخرة, فأما الآباء فكأنهم كالزرع الذي أخرج شطأه, فاستوى على سوقه, وكمل ولم يبق إلا حصاده وحفظ بذوره, فإن كانت البذور جيده صالحه أنبتت كل حبة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة, وإن كانت ضعيفة فاسدة, استطرقها الفساد حتى لووضعت في أخصب أرض ما أنبتت.

وهذا مثل الآباء الصالحين والأمهات الصالحات, الذين علموا حق العلم أن أبناءهم أسرارهم, فانتقى الآباء الأمهات كما ينتقى المزارع الأرض الخصبة لجودة زرعه, كما قال ﷺ : (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) ويقول : ﷺ (إياكم وخضراء الدمن, قالوا : وما خضراء الدمن يارسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء) [1] على أنه إذا تزوج الإنسان بزوجة ناقصة الأخلاق, فعليه أن يجاهد نفسه في أن يكمل ما فيها من الأخلاق, حتى تكون زوجة فاضلة تعينه على طاعة الله تعالى, تسره إن حضر, وتحفظه إن غاب, لأني أعتقد أن الأخلاق ليست طبيعية, وإن خالفني في ذلك من كتب في علوم الأخلاق ممن لم يستنر قلبه بنور القرآن المجيد.

فإذا رزقه الله بمولود اشتركا في العناية به, لتكون صحته جيده بالمحافظة عليه, بتدبير صحته في غذائه ولباسه ونومه ونظافته, ليشب شباب الأصحاء, حتى إذا تنبهت فيه قوة الغضب والمدافعة عن نفسه بالانتقام مما يؤذيه, لاحظاه ملاحظة تجعله يكون بطيء الغضب, صبورا على تحمل ما يؤذيه

(1) رواه الدار قطني عن أبي سعيد الخدري.

ليحس أن ذلك لا يغضب, وبالنظر إليه بدون بشاشة عند تسرعه في الانتقام, ليحس أن هذا العمل قبيح, حتى إذا تنبهت فيه قوة الفضائل – وأولها الحياء – وابتداؤها من سن التقليد من السنة الثالثة من عمره, ويتباعد الوالدان من عمل القبيح قولا كان أو فعلا ولو بالإشارة, فإن كان لابد ففي خلوة, لأن الولد لا يرى في عينيه أكمل من والديه, ويلزم أن يعملا أمامه الأعمال الفاضلة كالصلاة, وشكر المحسن وتأديب المسيء والصدقة, ومدح أهل الفضائل مدحا يشوقه إليها, والتحرز من مدح بعض أهل الرذائل أمامه, وكما يحصل من الجهلاء الذين يمدحون الحمقى في أعمالهم القبيحة, ويلاحظ أيضا أن لا يسب الوالد زوجته أمامه, حتى لا يسمع الولد من والديه ولا يرى منهما إلا ما تنمو به الفضائل, ويجب أن يحافظا على الأولاد من صحبة أهل الأخلاق الفاسدة صغارا كانوا أو كبارا, ومن سماع العبارات القبيحة والألفاظ السمجة, ويعتنيا بمراقبة الأولاد في أوقات الرياضة والألعاب, حتى يتبين لهم مضار اللعب في الأماكن القذرة, ومضار الألعاب المضرة, ويجب أيضا العناية بالطفل في هذا الدور من أن يشتم بقبيح الشتائم, أو يعاقب على بعض هفواته عقوبة صارمة, فإن ذلك يجعله ينطبع على الرذائل من الكذب وقلة الحياء, والإقدام على القبائح.

والمتعين أن يغض الوالد بصره عن هفوات الولد, وعيوبه التي يدعو إليها سنه, ثم يؤدبه عليها بموعظة وحكمة بعد فراغه منها, بحكايات يحكيها له, أو مثل يضربها له على قدر قواه, حتى يكره الرذائل ويحب الفضائل, فينطبع على الأكمل من نشأته, ويجب على الوالدين أيضا أن يسمعوا أولادهم في هذا الدور من العبارات, ما يجعلهم يحبون إخوتهم وأخواتهم وأقاربهم وجيرانهم, وأهل محبة والديهم, حتى ينطبع على الميل إلى التعاون الذي يتلقاه الولد في صغره عن أمه أو أبيه, إذا أعطياه شيئا قالا له : لا تجعل أحدًا يشاركك فيه, فإذا رجع إليهما وأخبرهما أنه أعطى فلانا شيئا ضرباه على ذلك !!..

دور التعليم :

إذا بلغ الولد سن التعليم – وذلك في الخامسة من عمره – ابتدأ والده أن ينبهه لنعم الله المحيطة به من الخبز والماء, والشمس والهواء, والنباتات والحيوانات, مبينا له قدر النعمة عليه من الله, بأسلوب يقبله عقله, حتى تميل نفسه إلى محبة الله بقدر ماينكشف له من خواص ما حوله, لينمو فيه ذلك الحب الذي يكون عليه مدار سعادته في الدنيا والآخرة, فإن محبة الله سبحانه وتعالى إذا حلت قلب الصبي بالبرهان المناسب لسنه, شب شباب المفكرين, ونشأ نشأة الملاحظين, وتنمو معه محبة الله كلما

كوشف بخواص الأشياء التي حوله وما فيه, فتشتد الرغبة فيه سبحانه وتعالى, والمحبة تؤدي إلى الطاعة, فإذا علم حكما من أحكام الله سارع في القيام بالعمل به, فيكون خلقه ربانيا مُحَّديا بالفطرة بلا تخلق, وبذلك يجمل بالعواطف الربانية, والمنن الإلهية, فيكون خيرا حقيقيا لنفسه, ولوالديه وأرحامه وجيرانه, وأهل بلده, والمسلمين جميعا, وبذلك يكون إماما للمتقين, وقدوة للمؤمنين.

ومتى تربى الأبناء على تلك التربية الحسنة الشرعية ذهب الغل من القلوب وأبدله الله تعالى بالعطف, والحسد وأبدله الله بالإيثار على نفسه, والطمع فيما لا مطمع فيه وأبدله الله بالجود, والغيبة والنميمة والسعي في مضار الناس وأبدلها الله بالعمل بما يعني كل شخص, ومتى كثر أهل الفضائل الإسلامية, قل أهل الرذائل الشيطانية, أو قلدوا الأتقياء, أو تستروا في أعمالهم القبيحة, وإنما تؤثر الفضائل الإسلامية في الطفل من نعومة أظفاره, حتى إذا بلغ أشده نمت فيه الفضائل نموا لا يعتورها مزج برذائل, ولا خلط بقبائح, فلا يصدر عنه إلا الكمال.

ثم إذا بلغ الصبي سن تلقى العلوم – وتبتديء من السنة السابعة – وجب أن يحتاط والده في هذا الدور حيطة عليه أكثر من حطيته على صحته من الأمراض, فإن دور تلقيه العلوم هو دور الاستعداد لبذر البذور في القلوب.

فإن كانت بذورا تنتج ثمرا طيبا أثمرت ثمرة صالحة, فنورت قواه الفكريةوجملت أفراد أمته, ونفعته في دنياه وآخرته, ونشأ متمسكا بالآداب الصحيحة عاقدا قلبه على العقيدة الحقة, مجملا بالأخلاق الفاضلة, مسارعا إلى الخير, معاونا على البر والتقوى, مؤمنا كامل الإيمان, تقيا عاملا بالكتاب والسنة, وإماما للمتقين.

وإن كان ما يبذر في أرض قلبه بذورا خبيثة من الآراء الفاسدة, والعقائد المضلة, وعلوم الجدل والمعارضات, أنتجت فسادا في الأخلاق والآراء وضعفا في الإيمان, وإنما النشء بالنسبة للمعلمين والأساتذة, كمعدن قابل للطرق يصوغه كيف يشاء, وبقدر ما احتاط الوالدان في المحافظة عليه في دور الطفولية لوقايته من المؤذيات ؛ يجب أن تكون الحيطة في هذا الدور أعظم, لأن تلافي المضار في سن الطفولية ممكن, ولكن ما يعتريه في سن التعليم والتربية كالنقش على الحجر, لا يمكن تلافيه بوجه من الوجوه.

فيجب أن يكون المعلم أولا تقيا, يخشى الله تعالى, ويرجو ثوابه, ويعلم أن الولد الصغير عضو كبير متمم للأمة, ويكون عالما بما أوجبه الشرع وما نهى عنه, وبمحاسن العوائد القومية, وبقدر الخير الذي يعود على الأمة من الفرد الواحد إذا كان متعصباللدين والعوائد الحسنة القومية, ميالا بفطرته إلى جلب الخير للأمة ودفع الشر عنها, مسارعا بسجيته لاستقباح كل عادة قبيحة, وخلق ذميم, ولو من أقرب قريب له, معتقدا حق الاعتقاد أن الحق إنما يؤيده أهل الإيمان العلماء بسبله العارفون بقدر نعمه عليهم, المؤمنون بيوم الحساب, الذين شهدوا بعيون بصيرتهم قدر نعمة الدار الآخرة وبقائها, ويعتقد أ ن الأمة قد تسود بالفرد الواحد, إذا نشأ على الآراء الصحيحةو المباديء الحسنة, والغيرة على الدين وحب الوطن, فيكون المعلم كأنه في أثناء تربيته للنشء يرفع قواعد مجد الأمة, ويشيد مراقي سعادتها, ويفتح لها كنوز الخيرات.

أخص صفات المعلم :

ومن أخص صفات المعلم أن يكون كامل الإيمان, عالما بقوى النفوس, وبوظائف الأعضاء, وأسباب أمراضها, وما يحفظ مسلكا يكون فيه نمو قوى النفوس سائرا مع نمو قوى البدن والأخلاق, وأن يكون ميالا بطبعه إلى التعليم حبا في العلم, ورغبة في انتشاره بين الأمة, لا لأجر يتقاضاه, أو لمذهب ينشره من مذاهب أهل الفساد, وآراء مضلة يبثها في الناس, أو لدسيسة وخديعة ينمي بها أفكار الأمة, ويربي عليها أبناءها. وكلما كان معلم علوم اللسان والأخلاق والعلوم الرياضية وفنون الطب مسلما كان النفع به أكمل وأتم, ويلزم أن لا يسلم الطفل لغير المسلم في أى علم أو فن إلا لضرورةشديدة تدعو إليها الحاجة دينا أو دنيا, وكل معاهد العلم التي شيدها غير المسلمين أوأدارها رجال ليسوا منهم, تفسد العوائد والأخلاق, وتضعف قوة التأثير الديني, وتفكك عرى الوحدة القومية, وتذهب ثروة الأمة, وتضعف صناعتها وفنونها, لأن المعلمين يحسنون للصبيان – الذين هم الأمة المستقبلة – عوائدهم وفنونهم وأخلاقهم, فينطبعون على بغض كل ما كان عليه آباؤهم, فتنقل أموال الأمة إلى البلاد التي منها المعلمون, ومتى قلت الأموال, التي بها عمارة الدنيا, وقوام الدين, وبها سد ضروريات الإنسان, فسدت الأخلاق, لأن الضرورة تدعوه إلى الحيل والكذب لجلب الدنيا والذل والملق.

وَإِنَّمَا ٱلأُمَمُ ٱلأَخْلاَقُ مَا بَقِيَتْ	فَإِنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلاَقُهُمْ ذَهَبُوا

ولا غرابة, فإن الأخلاق الإسلامية الفاضلة, وتلك النفوس الإسلامية الزكية العالية, والشيم العربية الجميلة, والعزائم التي اكتسبت من القرآن, وقد كانت كالشمس المشرقة ضحوة يفتخر بها حتى أهل الذمة وجيران المسلمين من الوثنيين وغيرهم, كادت كأنها لم تكن, وأبدلت بالرذائل والقبائح, وكيف لا ؟ وها هي بيوت الزانيات يتزاحم عليها الناس أكثر من المساجد, وأماكن الخمر والميسر يفتخر الجلاس فيها أنهم أهل مدنية وحرية وفضائل, وغيرهم أراذل وأسافل, ومنازل الربا صارت كأنها بيوت أموال المسلمين, يخاف الرجل على ماله من زوجته وأبيه وأمه, ويضعها أمانة في بيوت الربا، فأصبح المسلم لا يلذ له الطعام ولا الشراب ولا اللباس ولا يتلذذ برياش بيته وفراشه، إلا إذا كان كل ذلك من صناعة غير المسلمين، ومن تجار غير المسلمين.

هل بعد ذلك انحطاط في الأخلاق ؟ وفساد في الرأى ؟ وإسراف في الأموال؟ وقطيعة للرحم ؟ وحب لفقر الأهل والأقارب؟ كل تلك البلايا لم تصب المجتمع الإسلامي إلا مما بذر في قلوب الصبيان وهم في دور التعليم.

كان المسلم إذا عمل حيلة في قرض لجلب منفعة له، وبلغ إخوته المؤمنين تركوا السلام عليه، وهجروه لله، وحرموه طعامه وشرابه، وقالوا : أكل الربا، وهو يعمل بحكم شرعى إلا أنه حيلة في الجملة.

وأن كنتُ على يقين أن المعلم الذي لم يتجمل بفضائل الأخلاق، ولم يتكمل بالكمالات الشرعية، يكون ضرره أكثر من نفعه، وإن أمكنه أن يجعل تلاميذه محصلين للعلوم الصحيحة والفنون المفيدة.

ولكن إذا كانت الأمة قد نالت قسطا وافرا من الآداب الإسلامية، يكون لكل تلميذ مدرستان، مدرسة يتلقى فيها العلوم على يد معلم يعلمه ما ينفعه في دينه ووطنه — وإن قصرت به نفسه على بلوغ الكمالات الأخلاقية — ومدرسة منزلية يتلقى فيها الأخلاق والفضائل الإسلامية، والعوائد الحسنة القومية، من أساتذة حصروا آمالهم في مستقبل هذا التلميذ، هم والده ووالدته وعمه وجده وخاله وإخوته الكبار عنه، وأساتذة يحبون أن ينالوا الخير على يده، هم جيرانه وأقاربه.

فإذا اعتنت الأمة بانتقاء المعلمين، واختاروا منهم من توفرت فيه تلك الصفات،وهي تقوى الله تعالى، والتشبه بأئمة الهدى، وحب العلم والرغبة في انتشاره، وحسن سياسة الرعية – التلاميذ – ومعرفة النفوس وتزكيتها، ومعرفة القوى التي هي الخيال والوهم، والطرق التي تجعلها صالحة لاكتساب العلوم، ومعرفته ولو بما قل من علم وظائف الأعضاء، حتى يمكنه أن يستعمل الحواس الظاهرة في خدمة العقل، والصبر الذي يجعله يسوس مملكته التي هو مليكها بلين الجانب، وأن يكون نافعا مفيدا مشهورا بالفضائل في منزله، وفي المدينة وفي مدرسته.

وأكمل صفة في المعلم أن يكون متزوجا، وعندي أن المعلم المتزوج أنفع من غيره،خصوصا إذا كان له أولاد، فإنه يشعر برحمة للتلاميذ، وصبر على رعوناتهم، وحرص على خيرهم وسعادتهم.

الإهمال في اختيار المعلمين :

وقد أهمل الناس اختبار المعلمين في أخلاقهم وآدابهم وفضائلهم، واكتفوا بورقة تعطى من معهد من معاهد العلوم، تشهد لحاملها بالتحصيل، فتكون تلك الورقة التي هي شهادة من أفراد لا يتجاوز عددهم أربعة أشخاص، أجلسوه أمامهم دقائق، وطرحواعليه مسائل بعد أن استحضرها وحصلها فأجابهم عليها، فشهدوا له بالتحصيل، ولا يهمهم أمر آدابه وفضائله وأخلاقه وآرائه وعقيدته وكمالاته النفسانية، فإن خبث النفس يخفيه الخوف ويظهره الأمن، هذه الورقة إذا وصلت إليه جعلته بين الأمة – لجهلها – كأنه أقام حجة دامغة على الفضائل النفسانية والكمالات الأخلاقية، وامتاز بها على أمته، فيؤمن على الدماء والأعراض والنفوس، وقد يكون طبيبا يدعوه خبث نفسه إلى قتل نفس بريئة، أو خراب مدينة، أو إذلال عائلة. وقد يكون حاكما فيفصل المجتمع, ويفرق كلمته, ويوقع العداوة والبغضاء بين أفراده, وقد يكون معلما فيفسد الأخلاق والعقائد, ويظهر البدع والضلالات, وربما أفسد النشء بتقليدهم له.

كل ذلك لتهاون القائمين بشأن التعليم في امتحان الأخلاق والآداب والفضائل والكمالات النفسانية امتحانا عمليا, الأمر الذي أفسد أخلاق المتعلمين من الأمة. فإنك لا ترى متعلما في هذا العصر إلا والفضائل عنده رذائل, والكمالات الدينية عنده نقائص, والعوائد القومية عنده جهالات, حتى إذا رأى رجلا من أهل الفضيلة والكمالات والعلم والحكمة قال : هذا ليس عصريا, وأنا عالم عصري, ثم رماه بأنه متعصب للقديم, ولعله يريد بالقديم ما كان عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام,

من التواضع والرحمة ببني الإنسان, وإيثار الناس بالخيرات الدنيوية, وغض البصر عن عيوب الناس إلا بموعظة حسنة, والسعي في تزكية النفس وتحصيل كمالاتها, هذا الذي يراه قديما.

ويرى أن المدنية الجلوس على الطرقات في أماكن اللهو, والغفلة مع الطبقة السفلى من أهل الخلاعة, الذين لا عقل يعقلهم عن الرذائل, ولا دين يدعوهم إلى الفضائل, من الإباحيين الذين يرون أن حالة البهائم هي الفضائل والمدنية, فلا يشعرون بغيرة على عرض, فيجلس الرجل يداعب المرأة في المجتمعات, ويستحسن أن تكون زوجته وأخته وأمه في هذا المجتمع – مجتمع الضلالة – ويرمي زوجته المصونة العفيفة الحيية بأنها جاهلة ليست متربية.

ونعم, هي جاهلة, لأنها تجهل أنها بهيمة, وتعلم أنها إنسانة تقضي عليها رتبتها الإنسانية بأن لا تبدي جمالها إلا لمن أحله الله لها, ولا تجالس لغير حاجة ضرورية في أوقات الصفا إلا من لا يشينها الجلوس معه دينا وأدبا وعادة. ونعم, ليست متربية تربية تخرجها عن رتبتها الإنسانية, إلى رتبة الحمير والكلاب والقطط, لا, بل إلى رتبة أدنىمن ذلك, فإن الحمارة إذا دنا منها الحمار تفر منه وترفسه حياء, والأنثى من الحمام لا تأنس إلا بذكرها, فإذا دنا منها غير ذكرها – وكان زوجها في عمل منزلي – فرت منه إلى عشها, وكذلك الأنثى من أنواع الطيور والسباع, فإلى أي رتبة نزل الإنسان في هذا العصر ؟ اللهم رحماك بالإنسان.

من أين ألمت تلك البلايا بالمسلمين ؟ ألمت بهم من معلمي الضلالة, والآباء الجهلاء, والمتزينين بزي أهل التقوى والصلاح من كلاب الدنيا, فكانت تلك الورقة هي الطاعون على الأمة.

وقد كان ولاة الأمور من السلف ينتقون أهل التقوى والصلاح من العلماء, ويضربونهم على الولاية, وينتقون أهل التقوى والصلاح من العلماء للإرشاد والتعليم ويقرونهم على القيام بتلك الوظيفة, ولا ينظرون إلى غيرهم مهما بلغوا من العلم ما داموا على غير تقوى, وقد ضُرب الإمام أبو حنيفة وسجن على الولاية فأبى, وقهر الإمام مالك على أن يعلم أمير المؤمنين هارون في بيته فأبى, وكانت الأمة إذ ذاك هي الأمة مجدا وعزا وسلطانا وعدلا.

هذا كله بعض ما تناله الأمة من الخير من المعلمين الصالحين, وما تناله من الشر من المعلمين الضالين, فالمعلمون هم الأمة, والأمة بالمعلمين, ولم يظهر فساد في أمة ولا تفرقة ولا ضعف ولا محو

للسنة وإظهار للضلالات والبدع إلا بالمعلمين, فأعاذ الله الأمة الإسلامية من معلمي السوء ودعاة الجهالة.

بيان أنواع الخيرات :

وهنا يحسن أن أضع أصلا عاما مبينا لأنواع الخيرات, وهذا الأصل يجب أن تكون التربية العلمية والعملية وسيلة لتحصيله, يسعى المسلم للقيام بتحصيل أنواع من الخيرات يجذبه إليها الطمع في نيل ثواب الخالق سبحانه وتعالى, والفوز بمعونته سبحانه في الدنيا, ونعيمه ورضوانه ومغفرته في الآخرة, تلك الخيرات ثلاث :

أولا : تدبير النفس وتطهيرها من لقسها, وإعدادها لأن تقوم بالأعمال الخاصة بها, من تحصيل المعرفة بالله تعالى, وعلم ما يجب له سبحانه, وتحصيل الفضائل التي يكون بها المسلم مسلما يسلم الناس من يده ولسانه, وينتفع الناس به في دينهم ودنياهم.

ثانيا : العناية بالبدن عناية تحفظ عليه صحته, حتى تكون أعضاؤه سليمة, وأمزجته معتدلة, يمكنه أن يقوم بتنجيز ما تدعوه إليه نفسه الفاضلة من الأعمال النافعة, ولايكون ذلك إلا بالاعتدال في الرياضة, والمأكل والمشرب, والملبس والمسكن والأعمال.

ثالثا : العناية بتحصيل ما به نيل الخيرات للدين والآخرة والدنيا من الأموال بطرقها الشرعية الفاضلة, والسلطان بوجوهه التي مدحها الشرع, وحسنها العقل, وكثرة الأصدقاء الذين لا يمكن للمسلم أن يتحصل عليهم إلا بقدر ما ينالونه منه من الخيرات دينا ودنيا, أو دينا فقط, أو دنيا فقط, والأصدقاء في الله هم خير الأصدقاء الذين ينفع الله بهم المسلم في الدنيا والآخرة.

تربية المسلمين وسيلة لا غنى لهم عنها :

هذا الأصل ينبغي أن يكون قطب الرحى الذي تدور حواليه أصول التعليم, حتى إذا حصل أفراد الأمة تلك المعاني وصار كل فرد يعلم وجوه تحصيل الخيرات التي لابد له منها في أي مجتمع من المجتمعات, انتقى من معاهد العلم أفراد فطروا على الخير والهدى والتقوى إلى التربية الخصوصية, ليكونوا اختصاصيين في تولية الولايات, أو قيادة الجند أو الفتيا, أو الإرشاد والوعظ, أو علم المخالفات والبرهان والاستنباط, بقطع النظر عن النسب والغنى, فكم من نفس خبيثة في جسم من

أشرف العائلات, وكم من نفس لئيمة في جسم من أغنى العائلات, وكم من نفس كريمة فاضلة في إنسان من والدين خاملين, وهذه حقوق من حقوق الأمة يجب أن تطالب بها الأفراد, وإن لم يقم بها الأعضاء النائبون عن الأمة, والرجال المتسلطون عليها, وبمشيئة الله تعالى سأكتب رسالة في العالم والمتعلم, ينفع الله بها إن شاء الله تعالى.

البـــــاب الرابـــــع
الفصل الأول
تربية المرأة المسلمة

منزلة المرأة :

إن الله سبحانه وتعالى أنزل المرأة منزلة الرجل في جميع الأحكام الشرعية, فيما يناله المسلم من الرضوان والخير, فما قال سبحانه : المؤمن ؛ إلا وقال : والمؤمنة, وما قال سبحانه : المسلم ؛ إلا وقال : والمسلمة, إلا في أمور اقتضتها من المجتمع, فأسقط عنها شهود الجمعة والجماعة إلا بشروط مخصوصة, والجهاد إلا لضرورة بقدراستطاعتها, وأسقط عنها تكليفها بالنفقة على غيرها, لأنه خلقها ضعيفة, دائمة العمل فيما خصصه سبحانه وتعالى لها من الحمل والرضاع, وهو عمل شاق.

ولما كانت غير مكلفة بالنفقة – ولا على نفسها – جعل لها سبحانه وتعالى نصف ما للذكر من الميراث, وجعل شهادتها أقل من شهادة الرجل, لاشتغالها بنفسها عن ملابسة أهل الأعمال الدنيوية, ولشدة تأثيرها بالظاهر المحسوس بخلاف الرجل, وفيما عدا ذلك, فالرجل والمرأة سواء في العلم والعمل, والسعي وراء الخيرات, فما أوجب على الرجل عملا من الأعمال, ولا طالبه بواجب من الواجبات, إلا وكانت زوجته شريكة له في هذا الحكم, وتزيد عليه, أن لها علوماً أخرى, يجب أن تتلقاها في المدرسة المنزلية لم يطالب بها الرجل, كعلم تدبير المنزل, وحسن تربية الأبناء, وكمال الحياء والغيرة على الشرف, وعلم قانون الصحة, وخواص الأشياء التي تستعمل في المنزل مما يلزم المأكل والمشرب, ومعرفة التأثيرات الجوية ومضار الأوساخ, لتنتفع بتلك العلوم عندما تكون كملك عظيم, لرعية سميعة مطيعة, ولو جهلت شيئا من ذلك لأفسدت المملكة, وبفساد تلك المملكة الصغيرة, يسري الفساد إلى المملكة الكبيرة. فالمرأة مطالبة بما طولب به الرجل وأكثر, وإن ما طولب به الرجل في جانب ما وجب على المرأة شيء قليل, فإن الرجل مهما كان فاسدا مفسدا خارج البيت, فإنه يجد من يرده ويقهره على ترك الفساد, ولكن المرأة في بيتها ليس معها من يردها, فإنها تكون بين أبناء صغار يعتقدون نزاهتها وكمالاتها, أو خدما يطيعونها طاعة عمياء, فإن أهمل الوالدان والأمة في تربية البنات, حتى صارت البنت أما, فكأنهم سعوا في هدم مجد الأمة دينا ودنيا, وقد بلغ التغالي – في تربية البنات وترك تربيتهم – مبلغا حتى أدىإلى تحسين الرذائل وتقبيح الفضائل من أهل المذهبين.

كيف نربي البنات؟

وعندي أن الداعى إلى تربية البنات إلى الطريقة التي تكون المرأة والرجل فيها سواء فالأندية والمجتمعات, ليس من بني الإنسان, بل ولا من أنواع الحيوانات التي تشعر بنوع من الكرامة كالطيور والسباع, فإنه إنما يدعو إلى محو كل الفضائل والكمالات, التي يجب أن تكون عليها المرأة لتكون دعامة للأمة الإسلامية.

وعندى أن الذين قاموا للرد على هؤلاء مخطئون, والأولى أن يقوم العلماء ببيان مايجب أن تتعلمه المرأة, ويبينوا قيمتها في المجتمع الإسلامى, وما يجب عليها في منزل والديها, وفي منزلها الجديد مع زوجها ووالديه وأقاربه وأولادها, حتى تكون خيرا لزوجها, وعونا لوالديه وأهله, تعينه على بر والديه وصلة رحمه, وتكون لهما خادمة, كما أمر الله تعالى, ليمن الله تعالى عليها عند كبرها بزوجة ولد تقوم لها بما قامت به لوالدة زوجها وأقاربه, فيحصل البر للوالدين, والصلة للأرحام, والتعاون على الخيرات, وفراغ القلب لما يزيد خير الأمة, كل ذلك بسبب تربية البنات. والإهمال في تربيتهن, يجعل الوالد عندما يزوج ابنه كأنه فصله عنه إلى زوجته وأهلها, فيعق الولد والديه, ويقطع أرحامه, ويكون كأنه لم يكن بينه وبين والديه وأقاربه صلة, فتتفكك أعضاء الأمة, ويقف الولد مع والده موقف العدو للعدو, ويخاصم أمه ويبغض إخوته, كل ذلك من عدم تربية البنات, وكل ما أوجبه الشرع على الرجل أوجبه على المرأة.

وقبل أن نبين طرق تربية البنات, والمقادير التي يمكن أن يتحصلن عليها, نتذكر ماكانت عليه المرأة قبل الإسلام, ثم نردف ذلك باستعدادها الشخصي, الذي أبدعها مبدع الكائنات مؤهلة له, ومنحها من القوة ما به تقوم به :

حالة المرأة قبل الإسلام :

كانت المرأة قبل الإسلام أدنى منزلة من أحقر العمال, كان الرجل كسلطان قاهر, وهي كعامل حقير, عليها صنع البيوت غزلا ونسجا, ورفعها في الإقامة وحلها عندالرحلة, حتى كان أحقر العمال يرى أنه أرفع درجة من المرأة, وذلك لما عليه المرأة من دوام الضعف في الحمل, والوضع, والرضاع, وعدم القدرة على جلب ما لابد لها منه, فكانت في أشد الحاجة إلى الرجل, تنزله منها منزلة الملك المسيطر أو الولي القادر, ودامت يحصنها الرجل بحصون منيعة ليستقل بها دون غيره, ويدفع عنها من

يريدها, ولو بنظرة بما قدر عليه, فكانت العامل الوحيد للرجل في جميع شؤونه حتى فى بذر وحصد الزرع, وخدمة ماشيته, والقيام بجميع لوازمه في محل رعي ماشيته ومزرعته وفي بيته, هذا ما كانت عليه المرأة قبل الإسلام, ولا يرد على إكرام بعض النساء اللاتي أسعدهن الحظ أن تزوجن بأهل اليسار, أو ولدن لآباء مثرين, فإن المرأة منهن – مع ما هي فيه من الترف – كأمة لزوجها وخادمة لولدها, وكم من عامل حقير في بيت مثر متنعم بأشهى المأكل, وأجمل الملبس, وألين الفرش, ولكنه في أحقر منزلة, وأنا إنما أنظر إلى المسألة ملاحظا النسبة الواقعة بين الرجل والمرأة في حالي الفقر واليسار حتى جاء الإسلام.

جاء الإسلام والمرأة كالأمة, حتى كانت المرأة إذا ولدت بنتا حزن أهلها, واهتم أبوها أن يدفنها حية, ولا عبرة لما حل لبعض النساء من التعظيم عند من استعبدتهم الشهوة فانقادوا للنساء, فإن ذلك لا تخلو منه قرية, فضلا عن مجتمع.

حالة المرأة في الإسلام :

أنزل الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أحكامه المقدسة, فجعل الرجل والمرأة سواء في جميع أحكامه, من حيث العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق, ولعلمه سبحانه وتعالى بحقيقة المرأة ومنزلتها من الوجود, وضعفها, لأنه هو الخالق سبحانه, أسقط عنها الصلاة زمن الحيض, وزمن الوضع, والصيام – بشروط مخصوصة – زمن الحيض والوضع والرضاعة, وأسقط عنها شهود الجمعة والجماعة, وأسقط عنها الحج – إلا مع محرم أو زوج – وأسقط عنها الجهاد, وأسقط عنها النفقة – حتى على نفسها – وكلف الوالد أو الزوج أو الأخ الكبير بالنفقة عليها, وذلك لعلمه سبحانه وتعالى أنه خلقها أضعف من الرجل عظاما وشرايين وأودجة, وأعدها للحمل والوضع والرضاع, تنتابها الأمراض في كل شهر مرتين بالحيض, وبديهي أن شخصا تنتابه الاضطرابات, وتنهك قواه في الوظائف الحيوية, وتهدده الأمراض طول حياته في أدوار متعاقبة وأزمنة متناسقة, لابد وأن تصير قوته ضعفا, وشدته عجزا, وصحته سقما.

وهذه هي حال المرأة بالنسبة للرجل, ولقد أتت الشرائع السماوية, مثبتة لما هو حاصل بالفطرة منذ الأيام الخالية, حتى جاء السيد المسيح عليه السلام فلم يجعل للمرأة قيمة في المجتمع, فلم يتزوج, حظر على الرجل أن يتزوج المطلقة, حتى صارت المرأة في عين أتباعه كالمرض المعدي, وبلغ من نظره إليها بالاحتقار, أنه وقد جاءته أمه وإخوته أبي مقابلتهم, وقال : لا أم لي ولا أخوة لي. وكأنه جاء

عليه السلام لينوع الأمور الطبيعية, فيجعل الإنسان ينخلع من إنسانيته التي هو بها نوع من الحيوانات, حتى يتخلى عن البشرية ولوازمها, ولا يخفى ما ينتج عن هذا من خراب العمران, وضياع الحكمة الإلهية في خلق الإنسان.

وجاء الإسلام فأنزل الله تعالى في القرآن منبها لما للمرأة من الفضل, قال سبحانه : ﴿يأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[1]

فبين لنا سبحانه وتعالى أنه خلق المرأة من الرجل,, فلو نظرنا بعين البصيرة إلى أن المرأة من الرجل, وإلى الوظائف الحيوية القائمة بها المرأة, من حيض وحمل, وولادة ورضاعة, ثبت لنا جليا انحطاط المرأة عن الرجل في الجسم والعقل, وذلك لأن خلقها من الرجل يستلزم عدم مساواتها له, وذلك لأنها لم تخلق منه بطريق التناسل, بل بأخذ جزء منه بقدرة الله تعالى, فهي كجزء من الرجل, ولأن جميع هذه المظاهر الحيوية مما يؤثر على جسمها وعلى نظامها العصبي, ويجعلها في حاجة له, من التهيج والانفعالات النفسانية والاضطراب العقلي يجعلها لا تساوى الرجل, وهذا أمر بديهي, حيث أن أي اضطراب في وظائف الجسم, يجعل الإنسان غير مالك لقواه العقلية تماما, وقال سبحانه وتعالى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾[2], وقال سبحانه وتعالى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾[3], الآية, بين الله سبحانه وتعالى مدة الحمل والفصال على أقل تقدير, منعا لسوء الظن بالمرأة, حتى يتحقق الرجل أن أقل مدةالحمل ستة أشهر, فلو تزوج امرأة ووضعت بعد ستة أشهر ؛ لا يسيىء الظن بها لأن الغالب في الحمل تسعة أشهر.

وهنا يحسن أن أورد ما به تتروح النفوس: رفع رجل امرأته لأمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه, فقال: إن امرأتي ولدت لستة أشهر, فأمر أمير المؤمنين ﷺ بإقامة الحد عليها, فبلغ ذلك سيدنا عليا بن أبي طالب كرم الله وجهه, فحكم بأن الولد للرجل وأن المرأة عفيفة, وطلب

(1) سورة النساء آية 1
(2) سورة لقمان آية 14
(3) سورة الأحقاف آية 15

منه أمير المؤمنين الحجة, فقال : قال الله تعالى : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [1]، وقال سبحانه وتعالى :﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[2] فإذا أسقطنا حولين من ثلاثين شهراكان الباقي ستة أشهر، فكبر سيدنا عمر، وقال : كاد عمر يهلك لولا علي. رضي الله عنهما.

فإذا كانت المرأة تمكث ثلاثين شهرا في عناء، مع ما هي قائمة به من واجباتها المنزلية، وبعد فطام الولد تكون وليته في حركاته وسكناته، حتى يستقل بنفسه في السنة السابعة، وقد تحمل في الرضاع، أو بعد الفطام، فتكون أيام حياتها – مع ضعفها –تتخللها الأمراض من حمل ورضاع، وتربية وحيض، فلا يمكنها في هذا أن تكون كالرجل، لأن الله سبحانه وتعالى خصصها لهذا بقاء للنوع، فإذا قامت المرأة بما خصصها به خالقها سبحانه وتعالى على الوجه الذي يرضيه سبحانه، فقد قامت بالواجب عليها وأكمل، لذلك فالله سبحانه وتعالى رفعها من حيث نيل الفضل والرضوان والنعيم الأبدي إلى مقام الرجل، فقال سبحانه وتعالى :﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّاللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [3] فجعل المسلم والمسلمة سواء عنده سبحانه في نيل الفضل العظيم.

ثم أمر الرجل بأن يقوم للمرأة بما لابد منه لها وأكمل حتما قال تعالى : ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾[4] ولم يوجب عليها أن ترضع ابنها لزوجها إذا أبت ذلك، وأوجب على الرجل أن يرضع ابنه بالأجرة، كل ذلك إعلاء لمنزلة المرأة وتعظيما لها في الإسلام، وبين رسول الله ﴿ﷺ﴾ في السنة المطهرة ما يجب على الرجل للمرأة حتى قال:(خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) [5] ومن إكرامه سبحانه للمرأة أن جعل الطلاق، وجعل للحاكم أن يطلق المرأة من زوجها قهرا لعسر النفقة، أو لفقد عضو الذكورة قبل الدخول بها، أو لسوء

---

(1) سورة الأحقاف آية 15.
(2) سورة البقرة آية 233.
(3) سورة الأحزاب آية 35.
(4) سورة البقرة آية 236.
(5) رواه ابن ماجه

العشرة، هذا ولم يرفع تعالى المرأة إلى مقام الرجل إلا بما تقوم به من أنواع القربات، ولا قربة إلابعلم، ولا علم إلا بتعليم، وهنا ثبت أن المرأة وجب أن تتعلم، ولكن يجب أن نبين ما تتعلمه المرأة شرعا، ومن الذي يعلمها ويباشر ذلك منها.

العلوم التي تتعلمها المرأة :

تتعلم الإيمان، ثم تحفظ ما لابد منه من القرآن، خصوصا الآيات التي تتعلق بالعفةوالأمانة، وأركان الإسلام من صلاة وصيام أولاً، والزكاة والحج عند تعيينها عليها، وكتاب الأدب من كتب السنة، مع تفصيل باب المعاشرة, ومعاملة الجيران والأرحام والأقارب, وثواب من يتولى مريضا, وبعض الأخلاق من الرحمة والشفقة على الخلق, والبر والصلة, لتعلم ما يجب عليها لوالدة زوجها ووالده وأقاربه, ويمكنها أن تقوم بتعليم أبنائها الصغار, ما تعلمته من العقائد الحقة, والعبادة والأخلاق, حتى لا تكون سببا في فساد عقائد الأبناء ونقش الأباطيل والبدع على صفحات قلوبهم من الطفولية, فإن تكملت بعلم أحكام الحيض, والاستحاضة, واليمين بالله, والطلاق, وكتاب العورات, وعلم من يحل لها أن تبدى زينتها له أو يحرم عليها, كان ذلك كمالا لها, ولو زادت على ذلك أخذ شيء من علم اللسان يجعلها إذا قرأت كتابا تميز بين الفاعل والمفعول, والمحكوم عليه والمحكوم به, أو قرأت حديثا لا تلحن فيه كان ذلك من الفضائل.

الفنون التي تتعلمها المرأة :

أولا تتعلم كيف تنظف جسمها وتتعود على ذلك من الصغر, وتكلف أن تنظف ثيابها, حتى تكون النظافة سجية, وتنظف حجرتها, فمنزلها, ولا يكون ذلك إلا بالتعليم.

ثم تتعلم كيف ترتب ثيابها وتحفظها من الأوساخ, وكيف تحفظ ما تؤمن عليه من الأشياء المنزلية, وترتب حجرتها فالمنزل, حتى يكون ذلك سجية لها.

ثم تتعلم الفنون اليدوية في صغرها, فتتعلم من الكتابة بقدر مخصوص لا تكون فيه كاتبة محررة, ولكن بقدر أن تعلم ما لابد منه مما يتعلق بمنزلها, أو يريده منها زوجها, وتتقن الغزل والنسج, وتفصيل الملابس والخياطة والتطريز, فإذا أتقنت ذلك بقدر عائلتها – لأنها إنما تتزوج بكفء – تعلمت فن تنظيم حجرة النوم وحجرة الاستقبال, وتنسيق الأثاثات وتنظيم مخزن الأشياء, ونظافة وتنظيم محل الطبخ والخبز, ونظافة أواني الأكل والشرب, حتى ينمو عندها ذوق يجعلها لا تستريح إلا بعد عمل ما

يسرها, وما يسر زوجها منها, وتتمرن على ذلك في بيت والدها, وعلى الوالد أن يشجعها على ذلك.

ثم تتولى تركيب الأغذية وصناعتها, حتى تحسن الأنواع التي تستعمل بين الطبقات.فإذا حصلت تلك الفنون تتلقى فن قانون الصحة, خصوصا فيما يتعلق بالنظافة والرياضة البدنية وبالاحتياطات التي تعمل عند الحاجة للمرض أو للرمد, أو وجع الرأس أو للإسهال, أو للدغة العقرب, أو لحرق الجلد بالنار – مما يحصل كثيرا بالمنازل – حتى يمكنها أن تقوم عند الضرورة بما لابد منه لتخفيف الآلام, أو دفع زيادة المرض أو انتشاره, ولابد أن تعطى من قانون الصحة أن الصحيح يجب أن لا يباشرالمريض, ويلزم أن يكون المريض بعيدا عن الأصحاء.

ثم تتعلم فن عمل المربات, وحفظ الأطعمة, وتربية الأزهار, وفائدة الهواء, بطريقة علمية, وقليل من الحساب, وتراجم بعض النساء الفاضلات, وخصوصا نساء الصحابة, ﷺ أجمعين, ممن كن من الرجال في مستوى واحد علما وفضلا, وأدبا وجهادا في سبيل الله, وعفة وصونا وخدمة لأزواجهن, مرضاة لله ولرسوله ﷺ.

وإذا تعلمت المرأة فنا من الفنون التي يكون زوجها متقنا له لتعينه على عمله ومعاشه هذا شيء منوط بها, وبحسن عشرتها مع زوجها.

فإذا زادت على ذلك تعليم صنعة من الصنائع التي تعملها في بيتها هي ومن يحب ذلك من النساء معها أو البنات، يكون ذلك من كمالاتها.

ولا أرى للمرأة المسلمة أن تتعلم لغة غير اللغة العربية، ولا فن الموسيقى، ولا فن تخطيط الأرض (الجغرافيا) ولا علم الحساب تفصيلا، ولا الإنشاء والخطابة، ولا الاطلاع على الروايات المفسدة، ولا الكتب المحشوة بأخبار أهل الخلاعة والعشاق والمتهتكين.

الآداب التي تتعلمها المرأة :

تتعلم كيف تطيع زوجها، وكيف تحفظ عرضها، وتعاشر أقارب زوجها، وكيف تتصرف في المملكة التي صارت رئيستها، وتتعلم الاقتصاد في الملبس والزينة، والحلي والأكل والشرب، وتتعلم أن تكون رياضتها البدنية في أوقات فراغها بتنظيف الحجر وتركيب الأدوات، والبحث عما يحفظ الأساسات

المنزلية، وما يجعل زوجها منشرح الصدر منها، وما يجعل أبناءها في صحة وعافية, وتتعلم آداب المجالسة مع أقارب زوجها وغيرها من النساء, وآداب المعاشرة وآداب السلوك في السفر والحضر.

الأخلاق التي تتعلمها المرأة :

تتعلم النفور من كل أجنبي لا يعنيها التكلم معه, والوحشة من كل رجل يتعرض لها إلا لحاجة شرعية, والحدة على كل امرأة تذكر أمامها غير زوجها, أو تذكر لها أجنبيا, والعفاف بتعصب أعمى, والغيرة على كل عضو من أعضائها أن يراه غير زوجها أومحرمها, حتى أطراف أصابعها, حتى تكون امرأة مصونة عفيفة, وهكذا النساء الفاضلات كن يسترن أطراف أصابعهن.

الفصل الثاني
تعليم المرأة ومعاملتها

معلم البنات في أدوار حياتهن :

أما من خمس إلى سبع : ففي المكتب مع إخوتها وأخواتها الصغار, تتعلم القرآن والإيمان (قواعد الإسلام) والكتابة والقراءة.

وفى السنة الثامنة : تتعلم ما لابد منه من مباديء الحساب والنحو والأخلاق, وما تقدم من تعليم العلم في مدرسة أو في مكتب, يلزم أن يكون رئيسه مسلماً تقيا ورعامعتقدا فيه, مشهورا بالصلاح, ومعه أساتذة لا يقلون عنه, وكلما كان معلم البنات قد تجاوز الخمسين سنة كان أكمل, ويلزم أن يتعلمن بمكتب أو مدرسة أقرب إلىمنزلهن, وأن يكون بالمكتب والمدرسة محل خاص بالصلاة في وقتها, وعقب الصلاة يعطي لهن درس عام بحسب المناسبات, والأولى أن يكون خاصا بالعفاف والشرف, وغض البصر, ولا ينبغي أن يكون في المكتب أو المدرسة معلم في سن العشرين من عمره ولا غير مسلم, إلا إذا لم يجد المسلمون من يقوم بتعليم فن من الفنون, كالتطريز والنسج, فينتدبون امرأة ليست مسلمة لتعليم هذا الفن, مع ملاحظتها من رئيس المكتب أو مندوبه, خشية أن تبث فيهن نفسا خبيثة, أو خلقا قبيحا يخالف الفضائل الإسلامية والعوائد القومية, ويلزم أن لا يتعلم مع البنات المسلمات بنات غيرالمسلمات, خشية من أن تكون بنت غير مسلمة كبيرة في السن, تأتلف مع بنت مسلمة صغيرة في السن, فتفسد عليها عاداتها الإسلامية, فإن غير المسلمات قد يذكرن النبيذ والخمر, وربما دعتها إلى زيارتها في بيتها, والطفل والطفلة ينبغي المحافظة عليهما في هذا السن أكثر.

فإذا أتمت السنة الثانية عشرة من عمرها, وحصلت ما لابد منه من العلوم والفنون, يجب أن يكون الأستاذ والدها, ويلزم أن تتلقى الفنون علميا وعمليا في المنزل, ولو اعترض معترض بأن أكثر الأمهات لسن متربيات, فالجواب أن كل رجل فامرأته متربية تربية تناسبه, فما من رجل إلا وامرأته تقوم له بما يلزمه من المأكل والمشرب والملبس وتنظيف حجرتها, وتدبر له بيته كما يحب, فإن احتاجت إلى مزيد علم فعليه أن يتولى تعليمها بنفسه حتى يتمم نقصها, وبذلك تكون أستاذة لبناتها.

وإني أستحث همم رجال العلم من المسلمين, أن يقدم كل عالم في فن من الفنون كتابا يدرس للبنات وبمشيئة الله تعالى سأكتب كتابا أجمع فيه ما بينته من العلوم الإسلامية الواجب على البنت أن تتعلمه ليكون نافعا إن شاء الله, وعلى علماء التاريخ والحساب وغيره أن يخدموا بتقديم ما يلزم للبنات

من الكتب, والله لا يضيع أجر من أحسن عملا, وأنا على يقين أن في الأمة رجالا أتقياء بررة في كل قرية, يمكنهم أن يقوموا بتربية البنات في المكاتب الصغيرة, حتى تبلغ البنت مبلغا تقوم به بالواجب عليها.

المرأة خلقت لأعمال خاصة :

نتج من ذلك كله أن المرأة خلقت خاصة لأعمال خاصة بها لا يمكن للرجل أن يقوم بها, تشغلها عن كل عمل خاص بالرجال, ولذلك فالذي أبدعها سبحانه خلق عظامهاأدق من عظام الرجال, وجسمها أضعف من جسم الرجال.

بين صحة الجسم وقوة العقل :

بديهي أن النفس المدبرة للجسم وقوة العقل التي هي كالوزير للنفس وبها كمال الإدراك, تكونان كاملتين في الجسم الصحيح القوي, وتنقصان إذا اعتورت الجسم أسقام أو اختل توازن أمزجته, كما هو مشاهد محسوس من فساد أخلاق المرضى, وفقدعقل الممرورين, وضعف الإدراك من ضعف الأبدان, وقلة التمييز عند من لم تتناسب أعضاؤهم, هذا أمر بديهي محسوس.

والمرأة كما قدمنا تعتورها الأمراض في كل شهر مرتين بالحيض, والأسقام بالحمل والرضاع في كل سنة, مع ما هي عليه من الضعف الفطري الذي يوجب نقصان عقلها ومبدعها الحكيم خلقها كأرض للبذر, فمن تعدى حدود الله وسننه فيها, فقد ظلمها وظلم نفسه, وأراد ما لا يكون.

حكم الشرع والعقل :

خير الأمور الوسط شرعا وعقلا, وهو أن المرأة تعامل بما تعودته من نعومة أظفارها :

1- فإن تعودت مزاولة الأعمال التي تطيقها خارج البيت في المزرعة, وفي الخدمة في غير منزلها, أو في قضاء ما لابد لها منه من الأسواق, حتى صارت أشبه بالرجل تشغلها الأعمال عن تنبيه قواها الشهوانية, ويلهيها ذل الاحتياج والضرورة عن الميل إلى الملاذ, كانت في حكم الأمة التي أنساها العمل الشاق ملاذها, ومثل هذه ليس لهافراغ يجعلها تفكر في الشهوات، لشغلها بالضروريات التي لو تهاونت فيها لتألم جسدهابالضرب أو الجوع والعري, كالأجير المحتاج الذي تشغله الحاجة عن النظر إلى النساء وإلى الملابس والمآكل, فيرضى بملء بطنه.

2-وإن تربت في نعمة فلم يشغلها عناء الأعمال ولا الفكر في الضروريات لراحة قلبها وبدنها, اشتغل القلب والبدن بعد ذلك لإدراك اللذة وسعى في نيلها, خصوصاإذا كانت البنت في صغرها لم تزاول الأعمال التي تلجئها إلى الوجود مع الصبيان حتى تألفهم فتنسى لذتها ومثل هذه يجب أن لا يراها إلا والدها, أو زوجها, أو والد زوجها عند الضرورة, أو ابنها, أو ابن زوجها عند الضرورة, أو أخوها, أو ابن أخيها, كما ورد في القرآن المجيد, قال الله تعالى : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىجُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [1] فإن مثل هذه – من فراغ قلبها, وراحة بدنها, وتوفر المطعم الشهي, واللباس البهي, والنسيم الجيد, والمنظر الحسن – لم تشته بعد ذلك إلا لذة الوقاع لأنها أرض خصبة صالحة للبذر.

وقد نرى الأنثى من كل حيوان إذا ارتاحت من العمل, وتوفر لها الغذاء, يحصل لها هياج شديد للواقاع, فهي كالمرأة ذات النعمة, وترى الأنثى من الحيوانات التي تعمل لا يحصل لها الهياج, ولو كانت مع ذكر من نوعها.

ترك الحجاب ناتج عن الجهل :

فرأي أهل الجهالة من ترك الحجاب ناتج من جهلهم بطبيعة المرأة, فإن العقلاء إنما جعلوا الحجاب على نوع مخصوص من النساء, لا على كل النساء, فإن نساء الفقراء اللاتي كالإماء يزاولن الأعمال مع أزواجهن, ويقمن مقامهم فيما يستطعن من العمل في الأسواق, وفي المزارع وفي المصانع.

وأما نساء أهل الثروة فالواجب عليهن الحجاب, وخروجهن من بيوتهن مفسدة للعرض, مجلبة للشر, مضيعة للشرف, فإنهن يخرجن متبرجات بزينتهن, ليلفتن أنظار السفهاء إليهن وليتمتعن بالنظر إلى الجمال والقوة, ممن لا أخلاق لهم, فترجع إلى زوجها وقد علقت غيره, وربما – والعياذ بالله –

(1) سورة النور آية 31

نسبت له من ليس منه, فيخرج حربا على والده عدوا لإخوته وأخواته, وكل ذلك من تساهل الآباء في البداية, والأزواج في النهاية, أعاذ الله المسلمين من أهل الغواية, قال الله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[1]

وما الذي يبتغيه سفهاء العقول القائلون برفع الحجاب عن المرأة ؟ يبتغون بذلك أن النساء المخدرات الجميلات, اللاتى صار لكل امرأة منهن زوج يجب أن تكون خاصةبه, ويغار عليها أن يرى حسنها وجمالها غيره, أو أن يتمتع بها غيره, والزوج ينفق عليها في سبيل ذلك نفائس أمواله, ويملكها نفسه, وهي متبرجة تجالس الرجال وتناجيهم, وتقبل زيارتهم في بيتها في خلوة, لم يكن معهما إلا إبليس الرجيم, والرجل رجل وإن كمل فإنه لا عصمة له, والمرأة امرأة وإن كملت فإنها لا عصمة لها, ويقولون : هذه هي المدنية.

ليسوا – والله – بعرب, ولا يقول هذا القول من هو من أبيه حقا, فإن النباتات الغربية في وسط المزارع البستانية تفسدها, وكذلك الولد الغريب عن أبيه لا ينحصر ضرره في عائلته, بل يتعداها إلى أمته التي ينسب إليها, يرى ما عليه الإفرنج فضيلة. والسبع في غابته, والطير في وكره, والديك مع الدجاج, بل وأكثر أنواع الحيوانات يراها رذيلة, فيغار الذكر على الأنثى أن يراها غيره, وهو حيوان أعجم لا ينتفع بأولاده, فكيف بالإنسان لا يرضى أن يكون إنسانا, بل ولا يرضى أن يكون حيوانا, ويجب أن يهوي إلى أدنى من أفق البهائم ؟ ! رحماك اللهم بالإنسان.

على نفسك أيها الدنيء فاحكم, أخرج أمك وأهلك وزوجتك وبناتك, كما خرج من لسن من آبائهن إلى مهاوي البغاء, ومواطن اللعنة والخزي, ففتحن لهن دوراللفسوق لا شرف يزجرهن, ولا دين يمنعهن, أعوذ بالله من مضلات الفتن.

وهنا أرى أن المسلم لا يكمل إسلامه إلا بالغيرة على عرضه, وبالمحافظة على دينه, والدين يوجب العفاف والصون, والنفس الكريمة تستنكف أن يرى الأجنبي ما وراء باب حرمه, فضلا عن أن يرى زوجته وابنته وأمه, إلا من أحوجتهم الضرورة إلى مزاولة الأعمال التي تنسيهم الشهوة والملاذ, والله أسأل أن يلهمنا العمل بديننا, والمحافظة على سنن نبينا ﴿ﷺ﴾.

---

(1) سورة النور آية 30.

البـــــاب الخـــامـــس
الأخـوة في اللــه تعــالى

الإخـوان :

ظهر لنا مما قررناه أن الإسلام هو النسب الحقيقي, الذي به التعاطف والتراحم والتناصر والتعاون على عمل الخير, والمسارعة إلى المغفرة والرضوان, وكل نسب وحسب مقطوع إلا نسب الإسلام وحسبه, ومن لم يصل نسبه بالإسلام مات على شعبة من شعب الشرك, فإن النسب الذي تعارفه الناس أن يتواصلوا في واحدة, كمايتواصل الأبناء في والدهم, والأقارب في أصلهم الأعلى.

أما نسب الإسلام الذي يتواصل المسلمون فيه فهو النسب الحقيقي, الذي صلته سعادة, وقطيعته شـــقاء, وهـــي أن يتواصـــل المســـلمون في ذات رســـول الله ﴿ﷺ﴾ اتباعـــا لســـنته ﴿ﷺ﴾ واقتداء بهديه, وتشبها به صلوات الله وسلامه عليه في كل أعماله وأحواله, وفي الله تعالى إخلاصا في العبودية لذاته الأحدية, وصدقا في العمل لوجهه الكريم, حتى يكون رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ أبا للمسلمين جميعا, ويرحم بعضنا بعضا, ويعطف بعضنا على بعض, ويصل بعضنا بعضا فيه ﴿ﷺ﴾ عملا بسنته, وإتباعا له صلوات الله وسلامه عليه.

وبذلك يكون كل مسلم لكل مسلم أخا هو عينه إلا أنه شخص آخر, إذا رأى المسلم المسلم رأى نفسه عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقا وميولا ومقاصد, حتى يتخيل لمن رأى المسلمين أنهم كلهم جسد واحد, ذو قلب واحد, وأعضاء متعددة تعمل كلها لخير كل الجسد, ولا يكاد يدرك أن المسلمين أكثر من واحد, لما يشهده في كل واحد على انفراده من كمال المعاني التي شهدها في غيره, حتى كأنه من شدة دهشته يكاد يقول : إني لم أفارق المسلم الأول الذي رأيته منذ أعوام, ولست بمبالغ في قولي هذا, قال الشاعر :

مَـنْ تَلْـقَ مِـنْهُمْ تَقُـلْ لاَقَيْـتُ سَـيِّدَهُمْ	مِثْـلَ ٱلنُّجُـومِ ٱلَّـتِي يَسْـرِى بِهَـا ٱلسَّـارِي

فإنك لا تزال ترى في زماننا هذا – والحمد لله – رجالا يمثلون أخوة الإسلام بمعناها الحقيقي, فإذا جلست مع رجل منهم سمعت منه الترغيب في العمل بكتاب الله وسننه, والعمل الحقيقي بما يأمر به, وبذل ما في يده لمعونتك, والعمل في الدنيا من وجهها الحقيقي, ليكون عاملا لله, نافعا لإخوته المؤمنين, وتراه يسارع إلى الخير ويعين عليه, ويحب لأخيه ما يحب لنفسه, وهم بقية الله.

كل مسلم يتصل نسبه بالرسول ﴿ﷺ﴾ :

فنسب أخوة المؤمنين يدلي إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ لأنه الوالد الحقيقى الذي هو أولى بأنفسنا منا, وبه يتصل نسب كل مسلم, وبقدر العلم بهذا النسب المحمدي تكون متانة الأخوة وقوتها, وبقدر جهل هذا النسب المحمدي يكون انفصام عروة الأخوة, ومن علم أن له أخوة في والد هو رسول الله ﴿ﷺ﴾ وأن صلتهم برُّ به ﴿ﷺ﴾ وبره ﴿ﷺ﴾ رضوان الله الأكبر, سارع إلى توثيق عرى الأخوة وبذل النفس والنفيس في كمال اتصال هذا النسب المحمدي, ومن هذا البيان يظهر لك جليا سر قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ وِنَإِخْوَةٌ ﴾[1] وذلك بعد علمك أن كل مسلم أخ لكل مسلم, ووالدهم جميعا رسول الله ﴿ﷺ﴾, وأن اتصال النسب برسول الله ﴿ﷺ﴾ هو اتصال في الله تعالى.

ولذلك وردت الأحاديث الشريفة في فضل الأخوة في الله, فالأخ في الله آخر هوأنت بلا شك لنفسك, وأنت هو لنفسه, وكأنكما نفس واحدة ذات أعضاء, كل عضو يخدم غيره

هذا ما يمكن أن أصرح به في مختصري هذا في شرح فضل الأخوة في الله تعالى, وأمامشاهد الأخ في الله التي يتفضل الله بها عليه عند التحقق بمقام الأخوة الخالصة في ذات الله تعالى, وفي ذات رسول الله ﴿ﷺ﴾, فلا ترسم في كتاب, ولا تبين بالعبارة, وإنما هي إشارات عن خالص أسرار التوحيد, وأنوار عن معرفة المكانة المحمدية صلوات الله وسلامه عليه, ومن كوشف بتلك الأسرار بذل النفس والنفائس في إحياء سنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ وتجمل بالإخلاص والصدق, وتكشفت له الدنيا عن حقيقتها, ورفع عنه الحجاب, حتى شهد ملكوت الله الأعلى, فجعل الدنيا مطية للآخرة, والآخرةمعراجا للوصول إلى حضرة القدس, ونسمة من تلك الأسرار خير من خير العمل, ولو أن كل مسلم كان أخا لكل مسلم لأصبحت العزة لكل مسلم, ولمكن الله لنا في الأرض كما قال الله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ....﴾ [2] الآية.

---

(1) سورة الحجرات آية 10
(2) سورة النور آية 55

ولكن جهل المسلم قدر الأخوة وما يناله بها من العزة والسعادة في الدنيا, ومن النعيم الأبدي في الآخرة, فتساهل بحقوق الأخوة, فتفرق المجتمع وانفصمت عروته الوثقى, وصار كل مسلم يقول : نفسي, كأن القيامة قد قامت, لا يعطف على أخيه الذي يدلي نسبه إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ والذى حبه حب لله ولرسوله ﴿ﷺ﴾ فأصبح المسلمون الذين جهلوا قدر الأخوة في الله,, أذلاء للكفار بعد أن كانوا أعزاء لله, رعية بعد أن كانوا ملوكا, يخافون أن يتخطفهم الناس بعد أن مكن الله لهم في الأرض بالحق, والأمرسهل, على إخوتي المؤمنين أن يعودوا لما كانوا عليه من العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ وإلى الحب في الله والبغض في الله بمعناهما ابتغاء مرضاة الله, وبذلك يمنحنا الله العزة والتمكين والقوة والسلطان, ويذل لنا أعداءه.

ما ينبغي أن يكون عليه المسلم :

هنا أبين لأخوتي – أمدني الله وإياهم بمحبته والتوفيق للعمل بكتاب الله سبحانه, وسنة نبيه ﴿ﷺ﴾ – مذاهب السلف الصالح ﷺ في الأخوة وما ينبغي أن يكون عليه المسلم للمسلم, والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجمعنا على الحق, ويجددمجدنا ويحيي سنن نبينا ﴿ﷺ﴾ ومناهج القرآن الكريم, ويجعلنا بأعينه سبحانه, إنه مجيب الدعاء.

قال الله تعالى : ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا..... ﴾[1] الآية.

وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2] وقال ﴿ﷺ﴾ : (الجماعة بركة) [3] وقال ﴿ﷺ﴾ : (كونوا مؤلفين ولا تكونوا منفرين) وعنه قال النبي ﴿ﷺ﴾ : (إن أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقا, الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الإخوان الملتمسون للبرآء العثرات) [4] وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : (إن أقربكم مني مجلسا أحاسنكم

(1) سورة آل عمران آية 102- 103
(2) سورة الحجرات آية 10
(3) رواه أبو داود والترمذى ورواه أبو يعلى الموصلى
(4) رواه الطبرانى في الأوسط الصغير من حديث أبي هريرة

أخلاقا الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون) [1] وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ : (إنكم لا تسعون الناس بأموالكم, ولكن ليسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق) [2] وقال النبي ﴿ﷺ﴾ : (إن الله حرم من المؤمن ماله ودمه وعرضه وأن تظن به ظن السوء) [3] وفي الخبر السائرعنه ﴿ﷺ﴾ : (لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا) [4] وقال أنس بن مالك ﷺ : كان أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ يتماشون, فإذا استقبلهم صخرة أو أكمة فرقت بينهم, فالتقوا من ورائها سلم بعضهم على بعض, وفي الخبر : (من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله تعالى) [5] وفي تأويل الخبر عن الله تعالى بمعناه, أنه سبحانه يقول للعبد يوم القيامة: جعت فلم تطعمني, فيقول : كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : جاع أخوك المسلم فلم تطعمه, ولو أطعمته كنت قد أطعمتني. فظاهره تغظيم حرمة المسلم, لأنه أقامه مقامه, وفي الخبر : (من سر مؤمنا فقد سر الله عز وجل) [6] قال ﴿ﷺ﴾ : (لا تظهر الشماتة لأخيك, فيرحمه الله ويبتليك) وقال ﴿ﷺ﴾ : (لا يجني جان إلا على نفسه) [7]

ولما كانت المؤاخاة في الله تعالى, والصحبة لأجله سبحانه, والمحبة له ﷻ فالسفر والحضر طرائق العاملين, في كل طريق فريق لما في ذلك من الفضل, ولما جاء فيه من الأمر والندب, إذا كان الحب في الله عز وجل من أوثق عرى الإيمان, كانت الألفة والصحبة لأجل الله تعالى, والمحبة والتزاور فيه سبحانه من أحسن أسباب السعادة, وقد كثرت الأخبار في تفضيل ذلك والحث عليه, وليس قصدنا الجمع لما روي, لميلنا إلى الإيجاز في كل ما قررناه, ولكن نذكر الأفعال المستحسنة وما تعلق بها, مما لابد منه.

---

(1) رواه الطبرانى من حديث جابر.
(2) رواه الطبرانى في مكارم الأخلاق.
(3) رواه الحاكم من حديث ابن عباس.
(4) متفق عليه من حديث أبي هريرة.
(5) رواه الديلمى.
(6) رواه البيهقى.
(7) رواه البخارى.

فضل الأخوة في الله تعالى :

الإخوان زين في الرخاء، وعون في الشدائد وتعاون على البر والتقوى، وألفة فالدين، قال بعضهم : (استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة فلعلك تدخل في شفاعة أخيك) وفي الخبر من أراد الله بـه خـيرا رزقـه خلـيلا صـالحا إن نسـى ذكـره وإن ذكـر أعانـه) [1] وورد أيضـا : (مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين، تغسل إحداهما الأخرى، وما التقا مؤمنان إلا أفاد الله عز وجل أحدهما من صاحبه خيرا) [2] وروينا عنه ﷺ (من آخى أخا في الله عز وجل رفعه الله عز وجل درجة في الجنة، لا ينالها بشيء من عمله) [3] ويقال : إن الأخوين في الله عز وجل إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه وأنه يلحق به كما تلحق الذرية بالأبوين والأهل بعضهم ببعض، وعنه ﷺ : (المؤمن كثير بأخيه).

التآخي بين الصحابة نموذج للقدوة :

وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عليّ عليه السلام، فشاركه في العلم، وقاسمه في نحر البدن، وزوجه أفضل بناته، وأحبهن إليه، وخصه بذلك لمؤاخاته عليه السلام،ورد في حديث المؤاخاة الذي آخى فيه رسول الله ﷺ بين أصحابه، فآخى بين كل شكلين في العلم والحال، آخى بين أبي بكر وعمر، وبين عثمان وعبد الرحمن وهما نظيران، وآخى بين سلمان وأبي الدرداء وهما شكلان في العلم والزهد، وآخى بين عمار وسعد وكانا نظيرين، وآخى بين علي وبينه عليه الصلاة والسلام، ورضي الله عنهم أجمعين، وهذا من أعلى فضائله لأن علمه من علمه وحاله من وصفه.

ثم آخى بين الغني والفقير ليعتدلا في الحال، وليعود الغني أخيه الفقير بالمال، قال أبو سلمان الداراني : إذا آخيت أحدا فلا تعاتبه على أمر تكرهه منه، فإنك لا تأمن أن يعنيك بشر من الأول. قال بعض العلماء : الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته،ومعاتبته خير من القطيعة، والقطيعة أحسن من الوقيعة. وقال بعضهم : كدر الجماعة خير من صفو الفرقة.

---

(1) رواه أبو داود من حديث عائشة رضي الله عنها.
(2) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس
(3) رواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس.

ومثل الأخوة مثل الزجاجة الرقيقة ما لم تحفظها وتوقها كانت معرضة للآفات، واستتمام الإخاء إلى خير الوفاة، أشد من ابتدائها حال الحياة، وأفضل الأخوة كما قال بعض العلماء : المحبة الدائمة والألفة اللازمة عملان، وكل عمل يحتاج إلى حسن خاتمة به ليتم العمل فيكمل أجره، فإن لم يختم بالألفة، ولم يحسن عاقبة الصحبة والمحبة فقدأدركه سوء الخاتمة، وبطل عنه ما كان قبل ذلك، فقد يصطحب الاثنان ويتواخى الرجلان عشرين سنة، ثم لا يختم لهما بحسن الأخوة، فيحبط بذلك ما سلف من الصحبة. فلذلك شرط العالم المحبة الدائمة، والألفة اللازمة إلى الوفاة لتختم له به, ويقال : ما حسد العدو متعاونين على بر، حسده متآخين في الله عز وجل ومتحابين فيه, فإنه يجهد نفسه, ويحث قبيله على إفساد ما بينهما, وقد قال عز وجل : ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[1] يعني : يقولون الكلمةالحسنة بعد نزغ الشيطان. وقال عز وجل مخبرا عن سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [2] وقد يقال : ما تآخى اثنان في الله عز وجل ففرق بينهما, إلا بذنب يرتكبه أحدهما, فقال بشر ﷺ : إذا قصر العبد في طاعة الله تبارك وتعالى سلبه الله عز وجل من يؤنسه.

آداب الأخوة في الله تعالى :

ومن علامة التقى : حسن المقال عند التفرق, وجميل البشر عند التقاطع, ففى الدعاء المأثور عنه ﴿ﷺ﴾ : (يامن أظهر الجميل, وستر القبيح, ولم يؤاخذ بالجريرة، ولم يهتك الستر) فكذلك صفات المؤمنين على معاني أخلاق المؤمن الأعلى ﷻ. قال عيسى عليه السلام لأصحابه : (كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما فكشفت الريح عنه ثوبه ؟ قالوا: نستره ونغطيه، فقال : بل تكشفون عورته، قالوا : سبحانه الله ! من يفعل هذا ؟ فقال : أحدكم يسمع في أخيه الكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها).

وقد روينا عن سيدنا عليّ عليه السلام : (أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغَضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا) وعن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ ما معناه : لا يكن حبك كلفا وبغضك تلفا. وعنه ﷺ : عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم، فإنهم

(1) سورة الإسراء آية 53.
(2) سورة يوسف آية 100.

زينة في الرخاء، وعدة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يلين لك ما يغلبك منه، واعتزل عدوك،واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشى الله عز وجل، ولا تصحب الفاجر فتتعلم فجوره ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تبارك وتعالى.

قال الأحنف ﷺ : من حق الصديق أن يحتمل له ثلاث : أن يجاوز عن ظلم الغضب، وظلم الهفوة، وظلم الدالة، وقال : الإخاء جوهرة رقيقة فهي ما لم تحرسها كانت معرضة للآفات، فارض الإخاء بالذلة حتى تصل إلى فوقه، وبالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير.

ويقال : من لم يظلم نفسه للناس ويتظالم لهم ويتغافل عنهم لم يسلم منهم، وقال بعض الأدباء : من اقتضى من إخوانه ما لا يقتضون منه فقد ظلمهم، ومن اقتضى منهم ما يقتضون منه فقد أتعبهم، ومن لم يقتضهم فقد تفضل عليهم. وبمعناه روينا عن بعض الحكماء : من جعل نفسه فوق قدره عند الإخوان أثم وأثموا، ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتعبهم، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا.

فلذلك عزز الناس الأخوة في الله عز وجل قديما، لأن هذا حقيقتها، فروي في الأخبار : (اثنان عزيزان، لا يزدادان إلا عزة : درهم حلال، وأخ تسكن إليه) وقيل : (تأنس به).

فمن حقيقة المؤاخاة في الله عز وجل إخلاص المودة له بالغيب والشهادة، واستواءالقلب مع اللسان، واعتدال السر مع العلانية في الجماعة والخلوة، فإذا لم يختلف ذلك فهو إخلاص الأخوة، وإن اختلف ذلك ففيه مداهنة في الأخوة ومروق من المودة، وذلك دخل في الدين،ووليجة في طريق المؤمنين، ولا يكون ذلك مع حقيقة الإيمان.

وكان الحسن وأبو قلابة يقولان : إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا، لأن أهلينا يذكروننا الدنيا، وإخواننا يذكروننا الآخرة.

وكان الحسن يقول : كم من أخ لك لم تلده أمك، وقال أبو معاذ الأسود : إخوانكلهم خير مني، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : كلهم يرى الفضل لي عليه، ومن فضلني على نفسه فهو خير مني.

وحقيقة المحبة في الله عز وجل أن لا يحسده على دين ودنيا، كما لا يحسد نفسه عليهما، وأن يؤثره بالدين والدنيا إذا كان محتاجا إليهما كنفسه، وينبغى أن يقدمه على أهله وولده، وأن يحبه فوق محبتهم، لأن محبة أولئك من الدنيا والنفس والهوى، ومحبة الإخوان من الآخرة ولله تبارك وتعالى في الدين، وأمور الدين والآخرة مقدمة عند المتقين.

وينبغي أن ينصح له فيما بينه وبينه، ولا يوبخه بين الملأ، ولا يطلع على غيبه أحدا،فقد قيل : إن نصائح المؤمنين في آذانهم، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره، فإن كان أخوه الذي نصح له صادقا في حاله أحبه على نصحه، فإن لم يحبه وكره ذلك منه دل على كذب الحال، قال الله تعالى في وصف الكاذبين ﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [1].

وينبغي أن ينصره أخاه ويعينه بماله ولسانه، وقلبه وأفعاله، فإن النصرة في الله تعالىتكون بهذه المعاني الأربع : بالنفس إن احتاج إليك في الأفعال، وباللسان إن ظلم في المقال، وبالمواساة إن احتاج إلى المال، وأقل ذلك بالقلب أن يساعده في الهم والكرب، وفي اعتقاد السلامة فيه وجميل النية له، وعليه أن يحفظ غيبته وأن يحسن الثناء عليه، وينشر فضله ويطوى زلله ويقيل عثله، وينبغي أن لا يخالفه في شيء، ولا يعترض عليه في مراد.

حق الأخوة في الله عز وجل :

ومن حق الأخوة في الله عز وجل، ما نقل إلينا من سيرة السلف ﷺ،قال: كان الرجل يجيء إلى منزل أخيه من حيث لا يعلم فيقول لأهله : هل عندكم دقيق ؟ ألكم زيت ؟ أتحتاجون إلى كذا ؟ فإن قالوا : ليس عندنا، اشترى لهم مصالحهم. قال : ولم يكن الأخ يفرق بين عياله وعيال أخيه يقاسمهم المؤونة. قال :ويلقى أخاه فلا يعلمه بشيء من ذلك. وفي الحديث عنه ﴿ﷺ﴾ : (دعاء الأخ لأخيه بالغيب لا يرد ويقول الملك : ولك مثل هذا) [2] وفي لفظ آخر : (يقول الله تبارك وتعالى : بك أبدأ) والحديث المشهور : (يستجاب للمرء في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه) [3].

---

(1) سورة الأعراف آية 79.
(2) رواه مسلم من حديث أبي الدرداء.
(3) رواه أبو داود والترمذى.

فمن واجب الأخوة تخصيصه وإفراده بالدعاء والاستغفار له في الغيب، فلو لم يكن من بركة الأخوة إلا هذا كان كثيرا. وقال بعض العلماء : لو لم يكن في اتخاذ الإخوان إلا أن أحدهم يبلغه موت أخيه فيترحم عليه ويدعو له فلعله يغفر له بحسن نيته له.

ويقال : من بلغه موت أخيه فترحم واستغفر له كأنه شهد جنازته وصلى عليه.

وقد كان الإخوان يوصون إخوانهم بعدهم بدوام الدعاء لهم ويرغبون في ذلك لحسن يقينهم وصدق نياتهم، وإن أعظم الحسرة من خرج من الدنيا ولم يؤاخ في الله عز وجل فيدرك بذلك فضائل المؤاخاة، وينال به منازل المحبين عند الله تعالى، ومن أشد الناس وحشة في الدنيا من لم يكن له خليل يأنس به، وصديق صدق يسكن إليه، كما قال سيدنا عليٌّ عليه السلام : ﴿وَغَرِيبٌ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ﴾.

وقال بعض السلف : أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم. وقال الحسن : لا تشتر عداوة رجل بمودة ألف رجل وقال عبد الله ابن الحسن : إياك ومعاداة الرجال، فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم.

ومن أخلاق السلف أنه لم يكن أحد منهم يقول في رحله : هذا لي وهذا لك، بل كان كل من احتاج إلى شيء استعمله من غير مؤامرة. وقد وصف الله عز وجل المؤمنين بهذا في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [1] معنى أمرهم :أمورهم ذكر جماعها كالشيء الواحد بينهم شورى، أي : مشاع مقسوم ولا يستبدبه واحد، بل هم فيه سواء، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي : كانوا خلطاء في الأموال لايميز بعضهم رحله من بعض، أى : شركاء. وقال بعض أهل البيت : (أثقل إخواني عليَّ من أحتشمه ويحتشمني) وقال بعض السلف: كانوا لا يغتنمون ولا يحتشمون. وسئل الحسن عن الصديق الذي أكل ماله بغير إذن منه فقال : من استراحت إليه النفس، وسكن إليه القلب، فإذا كان كذلك فلا إذن له في ماله. وعلى ما ذكرناه أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ أكل من لحم بريرة تصدقا به عليها، وكانت غائبة لما علم أنه يسرها،فلم ينتظر إذنها، وقال : (إن الصدقة قد بلغت محلها، هو عليها صدقة ولنا هدية). وكان بعض الناس يفاجئه الضيف فلا يكون عنده ما يقدمه إليه،

(1) سورة الشورى آية 38.

فيذهب إلى منزل أخيه، فيأخذ خبزا وقدرا كان طبخها فيحمله إلى ضيفه، فيلقاه أخوه بعد ذلك فيستحسنه منه ويأمره بفعل مثل ذلك في كل نائبة، قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾ بحضرة الإخوان (أَوْ أَشْتَاتًا) [1] في حال تفرقهم، فسوى بين غيبتهم وشهودهم لتسوية إخوانهم بينهم وبين أملاكهم، واستواء قلوبهم مع ألسنتهم في البذل والمحبة لتناول المبذول، وهذا تحقيق وصفه عز وجل لهم في قوله تعالى : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [2] وقد جاء في مخالطة المسلمين وفي الأكل مع الإخوان والاختلاط بالعامة والمشي في الأسواق، واشتراء الحوائج، وحملها للتواضع، ما يكثر رسمه ويطول وصفه، وكذلك كان سيرة الصحابة رضوان الله عليهم وشيمةالتابعين لهم بإحسان.

وقد جعل الله تبارك تعالى في المخالطة للمؤمنين من البركة، ما لو يجيء فيه من الأثر إلا هذا كان فيه كفاية، روينا أن النبي ﴿ﷺ﴾ لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم ليشرب منها، فإذا التمر المنقع في الحياض الأدم وقد نفثه الناس بأيديهم وهم يتناولون منه يشربون، فاستقى منه، فقال : (اسقوني)، فقال العباس : يارسول الله إن هذا النبيذ شراب قد مس وحيض بالأيدي، أفلا آتيك بأنظف من هذا في جر مخمر في البيت ؟ فقال : (لا، اسقوني من هذا الذي يشرب منه الناس ألتمس بركة أيدي المسلمين، فشرب ﴿ﷺ﴾). وروينا في خبر آخر : قيل : يارسول الله الوضوء من جر مخمر أحب إليك، أو من هذه المطاهر التي يتطهر منها الناس ؟ فقال : (بل من هذه المطاهر، التماس بركة أيدي المسلمين) وفي الخبر عنه ﴿ﷺ﴾ : (إذا التقى المسلمان فتصافحا فتبسم أحدهما إلى صاحبه، تحاتت ذنوبهما كما يتحات ورق الشجر) [3] وفي لفظ الحديث الآخر : (قسمت بينهما مائة رحمة تسعة وتسعون لأبشهما بصحابه وأحسنهما بشرا).

وليس الإخاء كف الأذى لأن هذا واجب، ولكن الإخاء الصبر على الأذى، ولا تصح مؤاخاة مبتدع في الله تعالى، ولا محبة فاسق يصحب على فسوقه، ولا محبة فقيرأحب غنيا لأجل دنياه، ولا ما يناله من عاجل مَهْنَاه، ولا لسبب موافقته على هواه، ولا لأجل ارتفاقه به اليوم لمنافعه ومصالحه في أحواله، ولا يكون ذلك مكافأة على إحسان أحسن به إليه، ولا لنعمة ويد يجزيه عليها، فهذه ليس

---

(1) سورة النور آية 61.
(2) سورة الشورى آية 38.
(3) رواه البندار من رواية مصعب بن ثابت.

فيها طريق إلى الله عز وجل، ولا للآخرة ؛ لأنها طرقات الدنيا وأسباب الهوى، وقد اختلف الصحابة فالأخ يحب أخاه في الله عز وجل، ثم ينقلب الآخر عما كان عليه ويتغير، هل يبغضه بعد ذلك أم لا. فكان أبو ذر يقول : إذا انقلب عما كان عليه وتغير فابغضه من حيث أحببته.

وكان أبو الدرداء يقول : إذا تغير أخوك وحال عما كان، فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى، وقالوا : لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غدا، واعلم أن إطعام الطعام، والإنفاق على الإخوان،مضاعف على الصدقات وعلى العطاء للأجانب، بمنزلة تضعيف الثواب في الأهل والقربات، روى عن عليٍّ عليه السلام : ﴿لَعِشْرُونَ دِرْهَمًا أُعْطِيهَا أَخِي فِي ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِمَائَةِ دِرْهَمٍ عَلَى ٱلْمَسَاكِينِ﴾ وقال أيضا عليه السلام: (لِأَنْ أَصْنَعَ مِنْ طَعَامٍ وَأَجْمَعَ عَلَيْهَ إِخْوَانِي فِي ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتِقَ رَقَبَةً).

ومن عرف فضل الأخوة في الله عز وجل وعلم درجة المحبة في الله تعالى صبر لأخيه وشكر له، وحلم عنه، واحتمل له لينال ما أمله فيه ويبلغ ما طلبه, فإن الصبر يحتاج إليه ليتم العمل, والشكر لابد له منه لدوام النعمة, ومن طلب نفيسا خاطر بنفيس, ومن رغب في رغبة بذل لها مرغوبا, والله عز وجل الموفق من يحب لما يحب.

بشائر المتحابين في الله عز وجل :

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : (المتحابون في الله عز وجل على عمود من ياقوته حمراء, فى رأس العمود سبعون ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة, يضيء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا, عليهم ثياب سندس خضر, مكتوب على جباههم : هؤلاء المتحابون في الله عز وجل) (1).

وروينا في حديث سيدنا معاذ ﷺ, وقد قال له أبو إدريس الخولاني : إني لأحبك في الله عز وجل, فقال له : أبشر ثم أبشر, فإني سمعت رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول : (ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة, وجوههم كالقمرليلة البدر, يفزع الناس وهم لا يفزعون, فقيل : من

(1) رواه الحكيم من حديث ابن مسعود.

هؤلاء يارسول الله ؟ قال :هم المتحابون في الله عز وجل) [1] عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله﴿ﷺ﴾ : (إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء, وقيل : من هم يارسول الله ؟ فلعلنا نحبهم, قال : هم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب, وجوههم من نور, على منابر من نور, لا يخافون إذا خاف الناس, ولا يحزنون إذا حزن الناس, وقرأ : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ [2] الآية, وعن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ قال : قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : (إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء, تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله, قال : يارسول الله أخبرنا من هم ؟ وما أعمالهم ؟ فإنا نحبهم لذلك, قال : هم قوم تحابوا في الله بروح الله, على غير أرحام بينهم, ولا أموال يتعاطونها, فوالله فإن وجوههم لنور, وإنهم لعلى نور, لا يخافون إذا خاف الناس, ولا يحزنون إذا حزن الناس, وقرأ هذه الآية : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ... ﴾[3] الآية.

عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : (يأتى من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تصل بينهم أرحام متقاربة, تحابوا في الله وتصافوا في الله, يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها, يفزع الناس فلا يفزعون, وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وفي الخبر : (ما زار رجل أخاه في الله عزل وجل – شوق إليه ورغبة في لقائه – إلا ناداه ملك من خلفه : طبت وطابت لك الجنة) [4] وورد في الأثر عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ : (إن رجل زار أخا في الله تعالى في قرية أخرى, فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا, فقال : أين تريد ؟ قال : أردت أخا لى في هذه القرية, قال : هل بينك وبينه رحم تصلها؟ أو له عليك نعمة تربها ؟ قال : لا, إلا أنى أحببته في الله عز وجل, قال : فإنى رسول الله إليك, أن الله تبارك وتعالى قد أحبك كما أحببته فيه) [5].

والحمد لله رب العالمين الذي تفضل علينا بالبيان, وأسأله سبحانه وتعالى أن يقيمنا مقام العمال المخلصين لذاته حتى ينفعنا بما علمنا, وأن يهب لنا الفقه في دينه, وأن يجددبنا مناهج رسول الله

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم
(2) رواه النسائي وابن حبان
(3) أخرجه أبو داود
(4) رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبي هريرة
(5) رواه مسلم

﴿ﷺ﴾ حتى يصير الدين كله لله, وأسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمحابه ومراضيه, وأن يتوفانا مسلمين, ويلحقنا بالصالحين, إنه مجيب الدعاء, وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين.

" تم بحمد الله وحسن توفيقه "

الإسلام نسب

طبعة نهائية